


أحمد عثمان

الأصول المصرية في اليهودية والمسيحية

«فتثقف موسى بعلوم مصر كلها حتى
صار مقتدرًا فى القول والعمل»

(أعمال الرسل ٧ : ٢٢)

«من مصر دعوت ابنى»

(إنجيل متى - الأصحاح الثانى: ١٥)

مكتبة الشروق




إهـــــــداء ٢٠٠٩

صيدلى/ حسن سعد الدين احمد حجازى

جمهورية مصر العربية

الأصول المصرية
فى اليهودية والمسيحية

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

مكتبة الشروق
القاهرة . كوالامبور . جاكارتا
٢ش البورصة الجديدة . ش قصر النيل ت: ٣٩٣٨٠٧١

أحمد عثمان

الأصول المصرية في اليهودية والمسيحية

«فتثقف موسى بعلوم مصر كلها حتى
صار مقتدرًا فى القول والعمل»

(أعمال الرسل ٧ : ٢٢)

«من مصر دعوت ابنى»

(إنجيل متى - الأصحاح الثانى: ١٥)

مكتبة الشروق

مقدمة

ما زال تاريخ مصر القديمة حافلاً بالكنوز والألغاز والأسرار .

فحتى اليوم تُكتشف مقابر وحصون ومدن وطرق عسكرية .

وحتى اليوم تتجدد ألغاز الهرم... فبعد أن كانت ظاهرة في كيفية تصميمه ووسائل نقل أحجاره وبنائه... دخلت إلى القلب من حيث عمل الممرات الداخلية وغرفة الملك بسقفها العجيب ، وعدد غرف الهرم وكيفية تكييفها بالهواء دخولاً وخروجًا... ثم تحولت إلى خصوصيات الشكل الهرمى وتأثيراته المادية والنفسية .

أما الأسرار الروحية لمصر القديمة ، فحدث عنها ولا حرج .

ويكفى للبوح بها نقل ما قاله C.F. Dupuis العالم البارز للثورة الفرنسية والحملة الفرنسية على مصر ، والذى اختير مديرًا للوقائع الثقافية فى فرنسا من عام ١٧٩٥ ـ ١٧٩٩ ، ثم رأس الهيئة التشريعية ، إذ قال فى أهم كتبه «أصل كل العقائد» :

«يمكن إرجاع كل الميثولوجيا والأديان إلى مصدر واحد هو مصر» (أثينا السوداء ص ٤٩ ، ٣١٩) .

كانت مصر مسرحًا لكثير من الأحداث فى التاريخ اليهودى والمسيحى والإسلامى . ولئن اعتاد المؤرخون القول بأن الإسلام ولد

فى النور، فإن الغموض ما زال يكتنف كثيراً من أحداث التاريخين اليهودى والمسيحى.

اعتمد التاريخ التقليدى لليهودية والمسيحية على الكتاب المقدس:

العهد القديم: ويتكون من ٣٩ كتابًا أو سفرًا، تُسمى الخمسة الأولى توراة موسى (التكوين ـ الخروج ـ اللاويين ـ العدد ـ التثنية) يليها كتاب يشوع بن نون فتى موسى وخليفته (وهو حفيد إفرايم بن يوسف من زوجة يوسف المصرية بنت كاهن أون) وآخرها كتاب ملاخى.

والعهد الجديد: ويتكون من الأناجيل الأربعة (متى ـ مرقس ـ لوقا ـ يوحنا)، ثم أعمال الرسل من رواية لوقا، بعد ذلك ٢١ رسالة أكثرها من بولس الرسول للمدن المختلفة، وأخيراً رؤيا يوحنا، والتى تتنبأ ـ فيما تتنبأ به ـ بعودة المسيح ليحكم ألف سنة، بعد حروب تسيل فيها دماء ثلث البشر بواسطة جيوش من مائتى مليون محارب، وتسقط بابل الزانية الكبرى، وتهبط أورشليم الجديدة المدينة المقدسة من السماء.

وقد روى القرآن أيضًا كثيراً من أحداث التاريخين اليهودى والمسيحى.

غطت روايات الكتب المقدسة (الثلاثة) كثيراً من الأحداث، ولكنها تركت بعض المسائل فى شىء من الغموض:

فعلى سبيل المثال، من روايات الكتاب المقدس:

ـ ما الذى يجعل يوسف يطلب من بيت فرعون أخذ موافقة فرعون على سفره لدفن أبيه يعقوب فى أرض كنعان؟

- كيف تدخل أخت موسى قصر فرعون لتعرض على ابنته إرضاع موسى؟

- هل تكفى أربعة أجيال لأن يرتفع عدد أبناء يعقوب من ٧٠ نفسا إلى ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل؟ أى أكثر من مليونى نسمة؟

- هل حارب داود مع الفلسطينيين ضد بنى إسرائيل؟

- أين قضى المسيح عليه السلام - وأمه العذراء - طفولته؟ ومتى بدأ رسالته؟ وخصوصًا أن هناك رأى يقول إن عدد اليهود فى الإسكندرية ومصر كان يقارب - إن لم يزد على - عدد اليهود فى فلسطين، فى القرن الميلادى الأول.

جاء أول ذكر للمسيح عند مرقس ويوحنا عند ذهابه للتعميد على يد يوحنا، وقبيل بدئه رسالته.

بينما ذكر متى أنه ذهب بعد ميلاده لمصر، ثم عاد بعد موت هيرودس، ولم يذكر شيئًا عنه بعد ذلك حتى ذهب ليوحنا لتعميده، ثم مباشرة رسالته.

أما لوقا، فقد أضاف على متى ذهاب المسيح مع أبويه كل سنة إلى أورشليم فى عيد الفصح، فلما بلغ الثانية عشرة «صعدوا إلى أورشليم كالعادة فى العيد، وبعد انتهاء أيام العيد رجعا وبقى الصبى يسوع فى أورشليم وهما لا يعلمان. . سارا مسيرة يوم واحد ثم أخذا يبحثان عنه بين الأقارب والمعارف، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يبحثان عنه، وبعد ثلاثة أيام وجداه فى الهيكل جالسًا وسط المعلمين، يستمع إليهم ويطرح عليهم الأسئلة، وجميع الذين سمعوه ذهلوا من فهمه وأجوبته».

ثم لم يأت أى ذكر لحياة المسيح بعد ذلك، إلا وهو ذاهب ليوحنا لتعميده ثم بدء رسالته.

- كذلك بدأ إنجيل متى بذكر نسب يسوع المسيح من إبراهيم (أبى الأنبياء) إلى يوسف رجل مريم. أما إنجيل لوقا فذكر تحت عنوان نسب يسوع المسيح:

«ولما بدأ يسوع (خدمته) كان فى الثلاثين من العمر تقريبًا، وكان معروفًا أنه ابن يوسف بن هالى...».

واستمر فى تسلسل النسب حتي وصل إلى آدم ابن الله.

- فكيف يُنسب المسيح ليوسف النجار؟

- كيف تحول بولس للمسيحية؟ ثم كيف تأهل بولس الرسول لدوره الأساسى فى تشكيل العقائد المسيحية؟

أما فى القرآن:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الآية: ٢٠ سورة المائدة).

فمن هم الملوك الذين كانوا وقت موسى أو قبيله؟

أو ماذا تعنى كلمة ملوك؟

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (الآية: ٨١ سورة الأنبياء).

فهل كان سليمان يسكن فى غير الأرض التى بارك الله فيها؟

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ (الآيتان : ٢٩ ـ ٣٠ سورة مريم).

- لمن كانت معجزة ميلاد عيسى عليه السلام وكلامه فى المهد؟ فلم يأت فى القرآن ذكر استشهاده ـ أو أتباعه ـ بأى من المعجزتين عندما بدأ دعوته؟

- فهل كان الميلاد فى مكان والدعوة فى مكان آخر؟ أم كانت المعجزتان لقوم ودعوة عيسى لأبناء أولئك القوم؟

وقد جاء فى التلمود أن عيسى تعلم السحر فى مصر ـ (المسيحية فى التلمود والمدراش ـ آر ترافيرس هيرفورد ـ لندن ١٩٠٣ ، صفحة ٣٥ ، ٥١).

- وإذا كان لأحبار اليهود السلطة والنفوذ فى تطبيق أحكام الشرع فى القدس وما حولها ، فكيف تركوا مريم العذراء ـ عليها السلام ـ بدون رجم طالما هى فى نظرهم زانية؟

بحث أحمد عثمان(*) هذه النقاط ، وغيرها ، بين سطور الكتب المقدسة ، وعلى جدران المعابد الفرعونية ، وأضاف إليها نتائج حفريات

(*) أصدرت دور النشر البريطانية أربعة كتب باللغة الإنجليزية لأحمد عثمان ، تجدها فى آخر الكتاب.

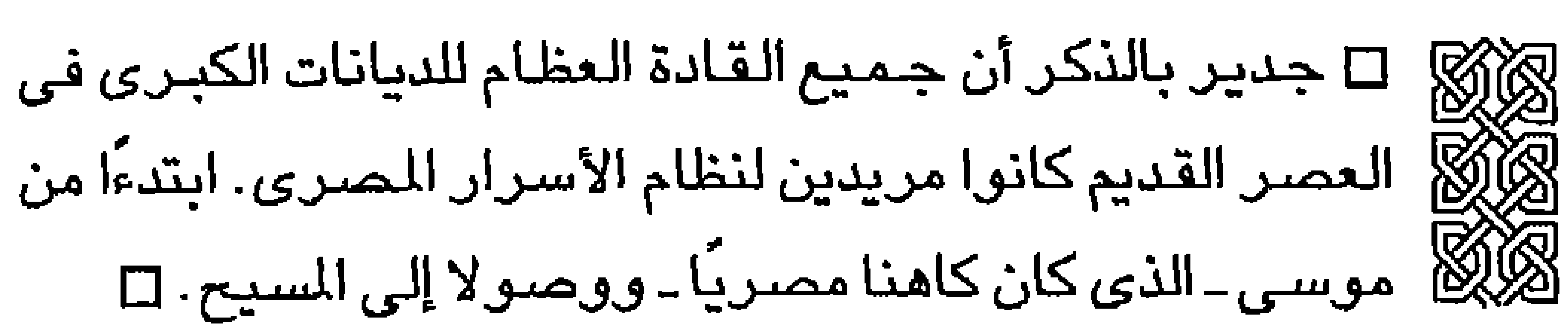
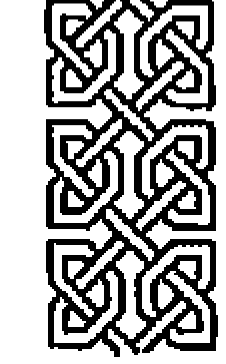
وبحوث الأثريين، وقضى السنين الطوال فى المكتبة البريطانية فى لندن، بين مختلف أنواع المراجع، وشارك فى العديد من الندوات والمؤتمرات، ليخرج فى النهاية بالكتاب الذى بين يديك.

ولا يزعم أحمد عثمان أنه توصل إلى حقائق تاريخية مطلقة، ولكنه يرى أنه قدم صورًا أقرب للتصديق والاقتناع من بعض صور التاريخ التقليدى، وهو يرحب بأى آراء وأفكار وانتقادات حول ما كتب، ويؤكد احترامه لكل الكتب المقدسة وأتباع دياناتها، ولكنه يستشهد فى النهاية بما كتبه الأمريكى ول ديورانت فى موسوعته «قصة الحضارة»:

«التعصب الإقليمى الذى ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ . . . لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقًا ذريعًا فى تصوير الواقع ونقصا فاضحًا فى ذكائنا» - (الجزء الأول صفحة ك).

عادل المعلم

الجــــزء الأول

□ جدير بالذكر أن جميع القادة العظام للديانات الكبرى في العصر القديم كانوا مريدين لنظام الأسرار المصرى. ابتداءً من موسى - الذى كان كاهنا مصريًا - ووصولا إلى المسيح . □

«التراث المسروق - منشورات المجلس الأعلى للثقافة
تأليف چورچ چى. إم. چيمس - ترجمة شوقى جلال - صفحة ٥٢»

الفصل الأول

الصراع بين الأسطورة والتاريخ

□ فى سنة ١٩٧٣، أصبح المسح التام للتاريخ أمرًا حتميًا.□

«تاريخ البشرية - الأهلية للنشر والتوزيع أرنولد توينبى،
الجزء الأول صفحة ١٣».

هناك محاولة تجرى الآن فى العالم الغربى لإعادة فهم طبيعة الحضارة البشرية والتعرف على جذورها، بمناسبة الاقتراب من نهاية الألفية الثانية للعصر الميلادى. وهناك عدد كبير من الكتب تم إعدادها للنشر، تمثل الآراء المختلفة التى تناقش هذا الموضوع. وبينما لجأ البعض إلى القول بوجود حضارة ضائعة للرجل الأبيض فى قارة أطلانطس - التى ورد ذكرها فى كتابات الفيلسوف اليونانى أفلاطون على أنها غرقت فى المحيط الأطلسى - كانت هى مصدر حضارتنا الحالية، وذهب آخرون إلى أن أصل الحضارة الإنسانية يعود إلى زوار الفضاء الذين جاءوا من كوكب المريخ، فإن هناك باحثين آخرين يحاولون التعرف على تاريخ هذه الحضارة عن طريق إعادة تفسير الروايات القديمة باستخدام المكتشفات العلمية والأثرية الحديثة. فقد أدت الاكتشافات الأثرية - بما فى ذلك بقايا العظام البشرية التى ترجع إلى مئات الآلاف من السنين - إلى تغيير الفكرة السابقة عن طبيعة الحضارة الإنسانية على كوكب الأرض. كما زادت المعلومات التاريخية التى لدينا عن الأزمنة القديمة، وتبين الآن أنها تختلف إلى حد كبير عما ورد فى الروايات والأساطير التى نعرفها. ولما كانت الفترة الأولى لتاريخ الحركة المسيحية لا تزال محاطة بالغموض وغير معروفة بدقة، فقد كان للعثور على مخطوطات البحر الميت - المكتوبة بالعبرية والآرامية عام ١٩٤٧ فى أحد عشر كهفا بخربة قمران (أو عمران) بالضفة الغربية للأردن - أثر كبير فى إلقاء الضوء على الحياة فى

فلسطين عند بداية العصر الميلادى. وحيث إن تدوين هذه المخطوطات جرى ما بين القرن الثانى قبل الميلاد ومنتصف القرن الميلادى الأول - فى ذات الوقت الذى عاش فيه السيد المسيح - حاول الباحثون العثور على ذكر لحياته أو موته بين صفحاتها. ثم تبين أن الأناجيل القبطية التى عثر عليها فى نجع حمادى بصعيد مصر عام ١٩٤٥، وإن اتفقت مع الروايات التى وردت فى كتابات بولس الرسول الذى نشر المسيحية بين غير اليهود من الأمم، فهى تختلف عن بعض الروايات الأخرى التى تحدد موقعا معينا أو تاريخا محددا لميلاد يسوع.

واختارت دار راندوم هاوس البريطانية للنشر بعض الباحثين الذين يختلفون فى مصادر ثقافاتهم، للإدلاء برأيهم فى أصل الحضارة. ففى أكتوبر عام ١٩٩٨ تم نشر كتاب باسم «أسطورة تكوين الحضارة»، للباحث اليهودى البريطانى ديفيد رول. ويحاول رول فى كتابه هذا إعادة تفسير نتائج الحفريات الأثرية الحديثة على أساس من روايات الكتب التوراتية. ويصل عن هذا الطريق إلى إثبات صحة القصص التوراتية - مثل قصص داود وسليمان - فيما يتعلق بتكوينهم لإمبراطورية تمتد حدودها بين النيل والفرات. ويرجع المؤلف السبب فى عدم تمكن الأثريين من العثور على أدلة تثبت صحة قصص العهد القديم، إلى خطأ علماء المصريات فى تحديد الأزمنة التاريخية خلال ثلاثة قرون، هى فترة حكم الأسرة الملكية الثامنة عشرة، ما بين القرن السابع عشر إلى الرابع عشر قبل الميلاد. ثم يرجع إلى الوراء إلى الفترة التى تقع بين قصتى آدم ونوح عليهما السلام، فى محاولة للبحث عن مكان جنة عدن وأرض الطوفان فى بلاد أرمينيا، ويحدد

الموقع الذى وقف عنده فلك نوح فى موقع آخر غير جبل أرارات. بل إن ديفيد رول يعتقد بأن برج بابل لم يكن موقعه فى بلاد الرافدين كما ساد الاعتقاد، وإنما فى جزيرة البحرين بالخليج العربى. وينتهى رول إلى أن أبناء نوح - بعد الطوفان - هم الذين هاجروا إلى مصر وعلموا المصريين حضارتهم، وكانوا هم أول الفراعنة الذين حكموهم.

وعلى هذا فإن ديفيد رول يرجع أصل الحضارة البشرية إلى سلالة بنى إسرائيل، ويعتبر التوراة هى المصدر الرئيسى للتاريخ.

وفى يناير ١٩٩٩ صدر كتاب آخر باسم «يسوع قبل المسيح» للدكتور ألفار الجارد، وهو مسيحى من السويد يشغل منصب العميد لكلية الآداب فى جامعة جوتبورج، كما أنه أحد الباحثين المسئولين عن مراجعة دائرة المعارف السويدية. يتساءل الباحث السويدى عن سبب عدم تحديد تاريخ حياة المسيح فى رسائل بولس الرسول وآباء الكنيسة حتى نهاية القرن الأول للميلاد، فكل ما يرد عنه فى هذه المرحلة هو قصة قيامته وظهوره روحيا إلى الحواريين. كما يشير الجارد إلى عدم ذكر لحياة المسيح كذلك فى كتابات المؤرخين الرومان أو اليهود فى تلك الفترة المعاصرة لحياته. واعتمادا على دراسته لمخطوطات البحر الميت إلى جانب مقارنة النصوص الإنجيلية، توصل الجارد إلى أن المسيح عاش فى فترة تسبق الوقت المتفق عليه بمائة عام، أى عند بداية القرن الأول السابق للميلاد.

إلا أن الجارد يتفق مع ديفيد رول على أن أصل العقيدة المسيحية

الغربية ـ وبالتالى الحضارة الغربية ـ هو مجتمع يهودا الذى كان قائما فى فلسطين، إلى أن حطم الرومان مدينة القدس عام ٧٠ ميلادية.

وفى لندن فى شهر أغسطس عام ١٩٩٨ صدر كتابى «جاء من مصر» "OUT OF EGYPT" بالإنجليزية(*)، عن دار راندوم هاوس للنشر، ليعيد تفسير تاريخ الحضارة الغربية ـ بما فى ذلك الكتب التوراتية نفسها ـ اعتمادا على نتائج الاكتشافات الأثرية التى تمت فى العصر الحديث. ويبين هذا الكتاب أن جذور الفكر المسيحى الغربى لم تكن عند اليهود بفلسطين كما ساد الاعتقاد حتى الآن، وإنما فى مدينة الإسكندرية بمصر. وأن بولس الرسول الذى نشر المسيحية بين الأمم فى بلدان الإمبراطورية الرومانية، تعلم الإنجيل عند سفح جبل موسى بسيناء على يد جماعة من الرهبان المصريين، وليس فى مدينة القدس. فبعد أن قامت روما بحرق الكتب التى تتضمن الأصول المصرية للكنيسة بمكتبة الإسكندرية، أصدرت تفسيراتها الخاصة التى اعتبرت أن الجماعات المصرية هرطوقية، حتى يصبح الفاتيكان هو المركز الرئيسى للعقيدة الجديدة بدلا من الإسكندرية.

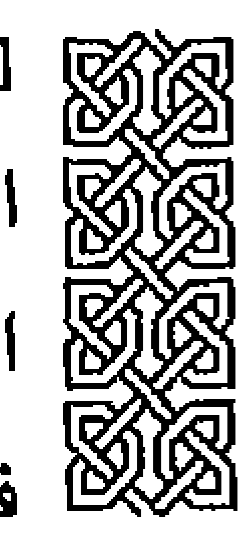
واستنادا إلى نتائج الحفريات الأثرية يتضح لنا أن القصص التوراتية ـ فيما يخص الإمبراطورية التى أقامها داود وسليمان ـ تعتمد على أصل تاريخى مصرى. ونحن نرى كيف أن سلسلة الحروب التى وردت فى التوراة منسوبة إلى الملك داود، موجودة هى نفسها فى تفاصيل حروب

(*) ترجم الكتاب إلى اللغات: الهولندية، المجرية، البولندية.

تحتمس الثالث المنقوشة بمعبد الكرنك وموجودة بقاياها فى آثار بلاد الشام، وأن هذا الملك هو الذى أقام أول إمبراطورية بين النيل والفرات. كما لم يكن تلاميذ المسيح الذين نشروا المسيحية بين الأمم - استنادا إلى ما ورد فى كتابات نجع حمادى - من أتباع بطرس الذى عاش فى مدينة القدس، وإنما كانوا من أتباع بولس الرسول الذى تعلم أصول الديانة المسيحية من الرهبان المصريين، وحيث أقام القديس مرقص أول كنيسة بالإسكندرية.

الفصل الثانى

حرق مكتبة الإسكندرية



□ وبدأ ثيوفيلوس تقويض معبد سرابيس. أما مكتبة الإسكندرية القيمة، فقد نهبت ودمرت، وبعد انقضاء قرابة العشرين عامًا بدت الرفوف خاوية خالية تثير الأسف والسخط فى نفس كل مشاهد لم يطغ على عقله ظلام التعصب الدينى. □

«اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ـ
إدوارد جيبون ج٢ صفحة ١٠٢ ـ الهيئة العامة للكتاب»

في أحد الأيام عام ٣٩١ خرج البطريق ثيوفيلوس - الذى أرسلته روما ليحكم كنيسة الإسكندرية - على رأس تظاهرة كبيرة من أتباعه، من مقره فى حى بروخيون الملكى بمدينة الإسكندرية، قاصدا معبد السرابيوم فى حى راكوتس المصرى غربى المدينة. وكان السرابيوم هو المعبد الرئيسى للعاصمة المصرية منذ أن بناه بطليموس الأول - خليفة الإسكندر الأكبر فى حكم مصر - عند بناء الإسكندرية قبل سبعة قرون. كما كان السرابيوم يحتوى على برديات مكتبة الإسكندرية الشهيرة، والتى بلغ عدد كتبها أكثر من نصف مليون كتاب تحتوى على مختلف أنواع العلوم من طب وهندسة، إلى علوم الفلك والرياضيات وكتابات اللغة والشعر والتاريخ والجغرافيا، وعلوم الفقه والدين والفلسفة، مكتوبة جميعها باليونانية، وإن كانت تمثل مجمل معارف الحضارة المصرية القديمة، إلى جانب كتابات أهل الحضارات القديمة. واندفع المتظاهرون فى حماس غاضب سائرين فى شارع كانوبى الذى امتد موازيا للساحل، قبل أن يدخلوا إلى منعطف صغير يتجه جنوبا إلى موقع السرابيوم. وصعد المتظاهرون فى حماس جنونى عند وصولهم إلى المعبد وراء البطريق ثيوفيلوس، يتسلقون الأسوار والدرج الذى يؤدى إلى ساحات المعبد.

وفى هذه الحالة من الهياج، لم يهتم الغوغاء بالحلى الذهبية والفضية ولا بالمجوهرات الثمينة أو التماثيل الفنية المصنوعة من

الرخام والبرونز، والسجاجيد والستائر التى كانت تزين قاعات السرابيوم، بل انقضوا على كل محتوياته وحولوها إلى أكوام من الحطام. حتى الأعمدة الجرانيتية بما رسمه عليها الفنانون من لوحات بارعة، والمفروشات الخشبية المطعمة بالعاج والأبنوس، تلفت كلها وسط صرخات النصر والفرح التى أطلقها المتظاهرون. ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فسرعان ما انتقلت جماعة الغوغاء هذه إلى الجناح الذى كان يحتوى على مكتبة الإسكندرية الكبرى... وهناك انتزع المهاجمون مئات الآلاف من اللفائف البردية التى تتضمن خلاصة معارف الحضارات القديمة من فوق الأرفف، ومزقوها إربا قبل إلقائها وسط النيران المشتعلة. **وبعد بضع سنوات من إحراق المكتبة، تم قتل آخر باحثى الإسكندرية بطريقة وحشية فى الطريق العام. ففى أحد أيام عام ٤١٥ أوقف عصبة من الرهبان عربة هيباتيا التى خلفت أباها كأستاذ للفلسفة بالإسكندرية، ونزعوا عنها ملابسها ثم جروها إلى حيث قتلوها ثم قطعوا لحمها قطعا صغيرة، قبل أن يحرقوا بقاياها بالنار فى الطريق العام. وكانت التهمة الموجهة إلى هيباتيا أنها كانت «هرطوقية» بسبب قيامها بتدريس فلسفة أفلوطين.**

ونتج عن عمليات القتل البربرية لأساتذة العاصمة المصرية وباحثيها، إلى جانب حرق مكتبة الإسكندرية - التى كانت تحتوى على مخطوطات مكتوبة باليونانية لجميع مصادر المعرفة القديمة - اختفاء الصبغة المصرية للعقائد المسيحية وللحضارة الغربية بشكل عام، مدة ستة عشر قرنا الماضية. ويهدف هذا الكتاب إلى التنبيه لإعادة اكتشاف الأصول المصرية هذه، بمساعدة الأدلة التاريخية والأثرية الجديدة.

فنصوص العهد القديم التوراتية مبنية على انتحال وقائع التاريخ المصرى القديم، ليس هذا فحسب، بل إن عقائد التوحيد اليهودية وخلود الروح المسيحية، ظهرت فى مصر القديمة. كما أن كثيرا من الشخصيات الرئيسية التى ورد ذكرها فى الكتب المقدسة، لم تكن كنعانية الأصل كما ساد الاعتقاد، بل كانت فى الواقع تمثل أشخاصا مصرية معروفة من مصادر التاريخ.

فالباحثون الغربيون - سواء منهم المسيحيون أو اليهود أو العلمانيون - يجنحون إلى تجاهل وجهات النظر المصرية عند تفسيرهم للتاريخ القديم. وحتى مانيتون الباحث المصرى العظيم الذى كان مسئولا عن تنظيم مكتبة الإسكندرية، تم استبعاده واعتباره غير مؤهل للكتابة فى المواضيع العلمية. كما أنهم يستبعدون المصادر الإسلامية تماما كمصدر للروايات القديمة، عند مناقشة تاريخ القصص التوراتية، وهذا لا يمكن تبريره لأن قصص القرآن تأتى من ذات المصدر الذى جاءت منه الكتب الدينية السابقة. كما أن القرآن - وإن اختلف فى بعض المواضيع عن الكتب الدينية السابقة - إلا أنه يتفق معها فى مواضيع أخرى، مما يجعل من الضرورى محاولة التعرف على سبب هذا الاختلاف.

وقبل أن تتحطم مكتبتها عام ٣٩١ ميلادية، ظلت الإسكندرية هى هم مركز ثقافى فى العالم القديم رغم مرور أربعة قرون على خضوع مصر للحكم الرومانى. فبعد أن وضع الإسكندر الأكبر خطة بنائها ٣٣١ قبل الميلاد، أصبحت الإسكندرية هى أول مدينة عالمية - زموپوليتان - فى التاريخ، حيث عاش المقدونيون واليونان مع لمصريين واليهود، وحيث وفد الباحثون من جميع أنحاء العالم للقيام

بدراساتهم فيها. جاءوا من إيطاليا واليونان، من الأناضول وبلاد الشام وشمال إفريقية، من بلاد العرب والفرس والهند. ولم يكن سكنى مدينة الإسكندرية هو العنصر الوحيد المشترك بين أهلها، فقد اشتركوا كذلك فى حبهم للمعرفة واهتمامهم بالفلسفة وحكمة القدماء. وكانت الإسكندرية هى الموطن الأول الذى فيه ترجمت كتب التوراة من العبرية إلى اليونانية، فأصبحت قراءتها فى متناول جميع المثقفين، بعد أن كانت وقفا على عدد قليل من كهنة اليهود. لهذا فليس مستغربا أن تصبح الإسكندرية هى المركز الرئيسى للفكر المسيحى فى العالم القديم.

وحتى نهاية القرن الرابع للميلاد عند تحطيم مكتبة الإسكندرية، كانت مصر تعتبر هى الأرض المقدسة للعالم القديم ومصدر الحكمة والمعرفة. فكان الحجاج يأتون إليها من جميع أنحاء العالم - بمن فيهم أباطرة الرومان - لأداة فرائض العبادة فى معابد سرابيس وإيزيس(*) وكذلك عند سفح جبل موسى فى سيناء. إلا أن هذا الوضع انتهى فى السنوات الأخيرة لحكم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الذى كان متحمسا للقضاء على اعتقادات الهرطقة (أى التى لاتلتزم بتعاليم أساقفة روما). كان ثيودوسيوس قد أصبح إمبراطورا للشرق أولا (من ٣٧٩ إلى ٣٩٢) قبل أن يصير إمبراطورا للشرق والغرب معا حتى عام ٣٩٥، وهو الذى قرر فرض دستور الإيمان المسيحى - أو الشهادة - الذى قرره

(*) انتشرت عبادة إيزيس وتماثيلها فى أوروبا القديمة، من البورسفور شرقًا إلى إنجلترا وأيرلندا غربا.

مجمع الأساقفة فى نيقيا عام ٣٢٥، على جميع شعوب الإمبراطورية . وكان الأسقف ثيوفيلوس الذى أرسله الإمبراطور الرومانى ليحكم الكنيسة المصرية من الإسكندرية متحمسا مثل رئيسه ، مما أدى به إلى حرق مكتبة الإسكندرية متسببا فى ضياع كل المعارف والعلوم القديمة التى عرفتها البشرية ، حين أحرق حوالى نصف مليون بردية ، مما نتج عنه ضياع الذاكرة المصرية القديمة .

كان الأسقف ثيوفيلوس هو أحد القادة الذين بعثتهم الحكومة الإمبراطورية لفرض تعاليم كنيسة روما على الجماعة المسيحية المصرية ، فى وقت كانت فيه غالبية الشعب المصرى قد اعتنقت الديانة الجديدة ، كما انتشرت جماعات العارفين ذات الطبيعة الصوفية فى جميع أنحاء البلاد . واعتبرت روما تعاليم العارفين المصريين هرطقة يجب القضاء عليها . وبحسب الروايات الثابتة ، فإن كنيسة الإسكندرية لم ينشئها القديس بطرس ولا بولس الرسول ، وإنما أقامها القديس مرقص صاحب أقدم الأناجيل ، فى وقت مبكر قبل نشأة كنيسة روما نفسها ، وحتى قبل عقد أول مؤتمر للحواريين فى القدس عام ٥٠ . كما أقيمت أول مدرسة للدراسات اللاهوتية وجدت فى أى مكان بالعالم فى الإسكندرية قبل نهاية القرن الميلادى الثانى ، وأصبحت مركزاً هاما للدراسات المسيحية برئاسة معلميها الكبار من أمثال كليمنت وأوريجون . بل إن نظام الأديرة والرهبان بدأ فى مصر أولا ومنها انتقل إلى باقى أنحاء العالم المسيحى ، بما فى ذلك روما نفسها .

ومع أن الملوك البطالمة أقاموا السرابيوم ليكون مركزا لعبادة سرابيس المعبود الرسمى لدولتهم والذى يمثل نهاية تطور عبادة

أوزوريس، إلا أن معابده أصبحت فى ذات الوقت مركزا لجأت إليه جماعات العارفين المسيحية فى البداية، كما لجأت إلى بعض المعابد الأخرى مثل معبد إيزيس بجزيرة فيلة ومعبد دندرة وبعض المقابر القديمة. والسبب فى ذلك هو أن الحركة المسيحية الأولى فى مصر جاءت تلقائية إلى حد كبير، ولم تكن منظمة كهنوتيا فى البداية. وسرعان ما تحولت المكتبة الكبرى بالسرابيوم - والتى كانت مركزا فكريا لجميع الباحثين القادمين من أنحاء الدولة الرومانية - إلى مركز للفكر المسيحى الجديد فى مصر. ولما كانت الفلسفة المصرية تقوم على أساس من محاولة التعرف على دلالات النصوص ومعانى الرموز الموجودة فى كتب الأنبياء، بينما طالبت روما بضرورة الالتزام بحرفية التفسيرات الرسمية التى يقوم بها الأساقفة، فقد اعتبرت الفلسفة الروحية المصرية نوعًا من الهرطقة، وخروجا على تعاليمها الصحيحة. ولما كانت الفلسفة الدينية المصرية هى المقبولة لدى غالبية المفكرين المسيحيين فى أنحاء الدولة الرومانية، فقد اعتبرت روما أن الطريق الوحيد لفرض تعاليمها هو تدمير المركز الفكرى الرئيسى فى الإسكندرية وتحريم الكتب التى تتعارض مع ما تصدره هى من تفسيرات. إلا أن تدمير مكتبة الإسكندرية لم يؤد لمجرد القضاء على تعاليم المفكرين المصريين فحسب، وإنما أدى إلى ضياع النصوص التى تحتوى على جميع العلوم القديمة من فلك وطب وهندسة وفيزياء، إلى كيمياء وتاريخ وجغرافيا وأدب. كما أن الكتب التى تم حرقها اشتملت كذلك على خلاصة معارف الحضارات القديمة إلى جانب المصرية، بما فى ذلك العلوم البابلية والفينيقية والفارسية واليونانية.

ولهذا اختفت جميع هذه العلوم بعد ذلك منذ القرن الخامس مدة عشرة قرون من الزمان تمثل العصور الوسطى المظلمة.

وبينما أدت ترجمة بعض النسخ الباقية للفلسفة الهرمسية والأفلاطونية الجديدة فى مدينة فلورنسا الإيطالية فى القرن الخامس عشر إلى ظهور حركة النهضة الأوروبية، فإن التاريخ كعلم، لم يتشكل إلا خلال القرن العشرين بعد استخدام عمليات الحفر الأثرى الحديثة، التى أخرجت العديد من البقايا القديمة من باطن الأرض، بما فى ذلك بعض البرديات التى تتضمن نسخا من علوم الإسكندرية، مكنتنا من استعادة الذاكرة المصرية القديمة مرة أخرى.

والآن عندما نبدأ فى إعادة كتابة تاريخنا القديم، تظهر مصر على أنها كانت، موطنا للمعلمين الروحانيين من إمنحتب المهندس الذى بنى هرم سقارة المدرج منذ ٤٧ قرنا، إلى موسى، وإخناتون الذى أدرك وحدة الوجود الإلهى، إلى أتباع عيسى المسيح الذين بحثوا عن الخلاص البشرى فى أبدية الروح. فبفضل علماء الآثار الحديثين، بدأ عصر جديد يبزغ فى الأفق، أصبح فيه ممكنا لمصر أن تستعيد مكانتها الأصلية. وجدت هذه النبوءة فى نص هرمسى عثر عليه ضمن مكتبة نجع حمادى القبطية عام ١٩٤٥، يتحدث عن كارثة سوف تصيب مصر عندما تتخلى عنها الآلهة، ثم تنتهى هذه الكارثة وتعود مصر كما كانت دائما، أرضا مقدسة: «أتجهل أن مصر هى صورة للسماء (على الأرض)، كما أنها موطن السماء وكل القوى التى فى السماء. وإن جاز لنا قول الحقيقة، فإن أرضنا هى معبد العالم. كما أنه من اللائق لك ألا تجهل أن الوقت سيأتى عندما يبدو وكأن المصريين قد

خدموا الآلهة عبثا... فسوف تترك جميع الآلهة مصر وتصعد عاليا إلى السماء. وستصبح مصر أرملة (عندما) تتخلى عنها الآلهة. لأن الأجانب سيأتون إلى مصر وسوف يحكمونها... وفى ذلك اليـوم سيصبح الوطن الذى كان أكثر البلدان ورعا، بلدا عديم التقوى. ولن يعود مليئا بالمعابد وإنما بالمقابر... وستصبح مصر (التى كانت) محبة الرب ومسكن الآلهة ومدرسة الديانة، مثلا للإلحاد. (إلا أن مصر سوف تعود مرة ثانية إلى سابق عهدها) وسيثبت سادة الأرض أنفسهم فى مدينة فى أحد أركان مصر سيتم بناؤها فى اتجاه غروب الشمس».

ويؤكد أشعيا النبى نبوءة الحكيم المصرى القديم، ويتنبأ فى كتابه بالعهد القديم بمجيء عمانوئيل (يسوع المسيح) كما يتحدث عن ظهور المخلص فى مصر:

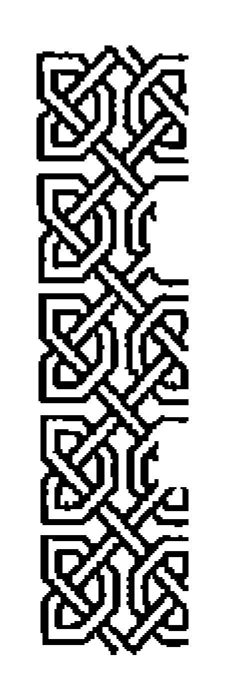
«فيكون علامة وشهادة لرب الجنود فى أرض مصر... فيرسل لهم مخلصا ومحاميا ينقذهم. فيعرف الرب فى مصر ويعرف المصريون الرب فى ذلك اليوم». (أشعيا ١٩ : ٢٠).

تلك النبوءة التى كررها إنجيل متى فى الأصحاح الثانى: لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل (اشعياء):

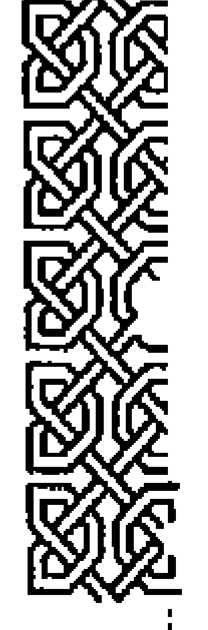
«من مصر دعوت ابنى».

الفصل الثالث

رؤيا الوزير يوسف الصدّيق



﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (سورة يوسف: الآية ١٠١)



﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة التحريم: الآية ١١)

المصدر الأصلى الذى عرفنا عن طريقه قصص الأنبياء الذين عاشوا فى مصر، هو الكتب الدينية. فقد جاء بالقرآن والتوراة أن يوسف الصديق وصل إلى مصر عبدا فى بيت عزيزها الذى اشتراه بدراهم معدودة، ثم تطور به الأمر ليصبح عزيزا فى أرض مصر وأحد وزراء البلاط الملكى. كما ولد موسى فى مصر وتربى فى قصر الفرعون بين أحضان الملكة المصرية، ودرس حكمة المصريين وعلومهم فى قصر الفرعون. ونزلت التوراة على موسى فى أرض مصر فوق جبل سيناء - الذى بُنى عليه فيما بعد دير سانت كاترين - وهناك حادثه الرب بعد أن خلع نعليه فى الوادى المقدس طوى. وبالرغم من أن بعض الباحثين الحديثين ينكرون أن يكون هؤلاء الأنبياء أشخاصا تاريخيين حقيقيين، زاعمين أنهم مجرد شخصيات أسطورية، إلا أن معاول الأثريين أخرجت لنا أخيرا العديد من الأدلة التى تؤكد تاريخية هؤلاء الأشخاص. وبما أنهم عاشوا فى مصر وارتبطت حياتهم بالقصر الملكى فيها، فإن تاريخهم يصبح جزءا من تاريخ الشعب المصرى، ولا يمكن أن نتركه حكرا على الآخرين. فكل حدث يقع فى بلادنا يصبح جزءا من التاريخ المصرى، وكل أثر يتم العثور عليه مدفونا فى أرض مصر إنما هو جزء من تراث الشعب المصرى.

ولهذا أمضيت ما يزيد على ثلاثين عاما فى غربتى بمدينة لندن، فى دراسة التاريخ المصرى القديم وعلاقته بما جاء من روايات فى الكتب الدينية، سواء فى القرآن أم فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. وكان أول ما توصلت إليه من أدلة، تتعلق بيويا وزير

أمنحتب الثالث ويوسف الصديق . فقد عثرت على العديد من الأدلة والقرائن التى تؤكد أن الشخص الذى نعرفه من المصادر التاريخية باسم يويا أحد وزراء أمنحتب الثالث ، هو ذات الشخص الذى وردت قصته فى القرآن والتوراة باسم يوسف .

لم يكن يوسف الصديق يهوديا لأن الديانة اليهودية لم تظهر فى بابل إلا بعد بضعة قرون(*) من عصر يوسف وموسى ، كما أنه لم يكن إسرائيليا ؛ لأن كلمة إسرائيلى أصبح لها الآن دلالة سياسية ، فصارت تعنى «مواطنا فى دولة إسرائيل» الحديثة . وإنما كان يوسف بن يعقوب عليه السلام - الذى صار يعرف باسم إسرائيل - من بنى (أسباط) إسرائيل ، الذى ينتمى لإحدى القبائل العبرية السامية . وأول ما ظهرت كلمة «عبرى» كانت فى سفر التكوين - أول كتب العهد القديم من الكتاب المقدس - للدلالة على إبراهيم ، ثم وردت كلمة «عبرانيين»

(*) تختلف الديانة الموسوية عن الديانة اليهودية ، فالموسوية التى ظهرت خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، تعتمد على فكرة الإله الواحد لجميع البشر ، وعدم إمكانية ظهور الإله فى شكل صورة أو تمثال . وقد ارتد بنو إسرائيل عن ديانة موسى بمجرد وفاته ، واعتنقوا ديانات كنعانية بضعة قرون إلى أن أقام الكهنة الديانة اليهودية فى بابل خلال القرن السادس قبل الميلاد . ومع انتشار الصوفية اليهودية (الكابالاه) من القرن الثانى عشر ، ثم ازدهارها وغلبتها منذ القرن السادس عشر ، عاد اليهود لفكرة تعدد الآلهة التى انبثقت من العلة الأولى ، وبينها من هو مذكر ومن هو مؤنث . راجع كتاب «الديانة اليهودية وتاريخ اليهود» لمؤلفه إسرائيل شاحاك صفحة ٦٥ - ٧٠ ، والذى قدم له إدوارد سعيد - منشورات شركة المطبوعات - بيروت .

- ومع أن اليهودية تقوم على أساس من التوحيد الموسوى ، إلا أنها تتضمن ركيزتين جديدتين ، وهما أن اليهود هم شعب الله المختار ، وأن فلسطين هى أرض المعاد .

للدلالة على بنى إسرائيل أثناء وجودهم فى مصر وبُعد دخولهم أرض كنعان. ولا شك أن العامل الرئيسى الذى جعل لقبيلة بنى إسرائيل أهمية خاصة، من الناحية التاريخية، كان هو علاقتها بالبلاط الملكى فى مصر، فى وقت كانت فيه مصر هى مركز الثقل فى العالم القديم. فقد كان هناك الكثير من القبائل العبرية المهاجرة الأخرى تبحث لها عن موطن فى العالم الجديد، وكان مصيرها إما الاختفاء والزوال أو الذوبان فى المجتمعات التى استقرت بها.

ولقد قص القرآن قصة يوسف بأكملها فى السورة التى تحمل اسمه، واتفقت هذه الرواية مع ما جاء فى القصة التوراتية من أن يوسف - بسبب غيرة إخوته من تفضيل أبيهم له - بيع فى مصر عبدا لعزيز مصر، ثم عينه الملك وزيرا له عندما أعجب بشخصية الصديق بعد أن فسر له حلم البقرات السبع، كما أعطاه زوجة مصرية كانت هى ابنة كاهن عين شمس. ولأن عمليات الكشف الأثرى جعلت التاريخ المصرى القديم معروفا لنا فى كل مراحله، حق لنا أن نتساءل، فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى عاش يوسف؟ ومن هو الملك الذى عينه وزيرا فى بلاطه؟ والمشكلة الأساسية التى تواجهنا عند محاولة التعرف على الزمن التاريخى الذى عاش فيه يوسف؟ هو عدم ورود اسم الحاكم المصرى الذى عينه فى منصبه هذا، لا فى القرآن ولا فى التوراة، ويصبح علينا محاولة العثور على دلالة أخرى لتحديد الزمن.

... جعلنى أبًا لفرعون

وكان السبب الأول الذى جعلنى أربط بين شخصية الوزير يويا ويوسف الصديق، أن كلا منهما حصل على لقب كان نادرا فى مصر

القديمة، هو «أبًا لفرعون». ففى إحدى ليالى شتاء لندن الباردة عام ١٩٨٤، استيقظت من نومى وسط ظلام الليل، فجلست بجانب المدفأة أتناول فنجانا من الشاى فى صمت حتى لا أوقظ ابنتى وزوجتى. ورحت أطالع سفر التكوين من العهد القديم، الذى سبق لى قراءته عدة مرات. وبينما كانت عيناى تنتقلان بين الصفحات، استوقفتنى فجأة بعض الكلمات فى قصة يوسف، فقد أدركت عندئذ - للمرة الأولى - أهمية دلالتها التاريخية. فبعد مرور بضع سنين على تعيين يوسف وزيرا فى البلاط الملكى جاءت فترة من الوقت ساد فيها القحط فى أرض كنعان، فأرسل يعقوب أبناءه إلى مصر لشراء القمح من هناك. وتَمكّن يوسف من التعرف على إخوته عندما رآهم فى مصر وهم لم يعرفوه، فدعاهم إلى الغداء فى منزله ثم تحايل عليهم ليحتفظ بشقيقه الأصغر بنيامين معه. إلا أنه - عندما أدرك أن فقدان بنيامين قد يعرض حياة يعقوب أبيه للخطر - لم يتمالك يوسف نفسه، وفى لحظة عاطفية كشف لإخوته عن شخصيته:

«أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه إلى مصر... لا تتأسفوا ولا تغتاظوا... فالآن ليس أنتم أرسلتمونى إلى هنا بل الله. وقد جعلنى أبا لفرعون» الأصحاح ٤٥ (٤ - ٩)(*).

من الغريب أن يصف يوسف نفسه بأنه أصبح «أبًا لفرعون»، وكان لقب الوزير فى مصر القديمة دائما هو «ابن الفرعون»، فقد كان الملك

(*) الكتاب المقدس - طبعة دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط.

Arabic Bible 43 26.5 M - 1990.

المصرى ـ بصرف النظر عن سنه ـ يعتبر أبًا لكل وزرائه، وهناك حالة شهيرة لوزير اسمه «هوى» عينه توت عنخ آمون حاكما على بلاد النوبة، وأعطاه لقب «ابن الملك للجنوب»، وكان الملك لايتجاوز الخامسة عشر، بينما كان الوزير قد بلغ الثمانين. وكان لقب «ايت نتر ان نب طاوى»، أى «الأب المقدس لسيد الأرضين» وهو نفس لقب يوسف «أبا لفرعون»، لقب نادر لم يحصل عليه خلال هذه الفترة التاريخية سوى شخص واحد هو يويا، الذى أصبح أحد وزراء أمنحتب الثالث عند بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد. والسبب فى حصول يويا على هذا اللقب النادر هو أنه أصبح حما للملك، عندما تزوج أمنحتب الثالث ابنته طاى، فصار بمثابة الأب للملك.

و«فرعون» هو أحد الألقاب التى أصبحت تطلق على حكام مصر منذ عهد تحتمس الثالث الذى أقام الإمبراطورية المصرية خلال القرن الخامس عشر ق.م. ومن بين الألقاب الملكية المصرية «نيسوبيت» والتى تعنى (حاكم الوجهين) و«نب طاوى» التى معناها (سيد الأرضين). والأصل المصرى لكلمة فرعون هو «برعا»، حيث إن «بر» تعنى «البيت» بينما «عا» تعنى «عالى». وهكذا يكون معنى اللقب هو «البيت العالى»، والذى أصبح يستخدم ـ مثله فى ذلك مثل الباب العالى عند العثمانيين، والبيت الأبيض عند الأمريكيين ـ للدلالة على الحاكم نفسه. ولما كانت بعض أشكال الباء المصرية تنطق فاء فى اللغات السامية، فقد أصبح هذا اللقب فى العبرية «فرعا»، أما العربية فقد استخدمت اللقب فى شكل الجمع بإضافة «ون» فى النهاية فأصبح «فرعون».

تلك الليلة لم أستطع النوم حتى الصباح، فأسرعت إلى مكتبة الجمعية البريطانية للكشف الأثرى المصرى، وفتحت كتاب مقبرة يويا وبحثت عن الألقاب. فقد تم العثور على مقبرة يويا وزوجته تويا فى وادى الملوك عام ١٩٠٥، وكان الأمريكى تيودور ديفيز هو الذى حصل على امتياز الحفر، وأشرف البريطانى چيمس كويبل على أعمال البعثة الأثرية، كما كتب الفرنسى ماسپيرو مقدمة للكتاب الذى نشر عام ١٩٠٧ عن مقبرة يويا. والألقاب التى حصل عليها يويا والتى تم العثور عليها فى مقبرته، هى:

سيد الخيالة

وكيل الملك (لسلاح) العجلات

حامل ختم ملك مصر السفلى

حامل ختم ملك مصر العليا

الأمير

مشرف على مواشى (الإله) مين فى أخميم

مشرف على مواشى آمون

المفضل لدى الملك

موضع ثقة الملك

الفم (المتحدث) لملك مصر العليا

آذان ملك مصر السفلى

نبى الإله مين

السمير الأوحد (للملك)

أول السُّمراء

الأمير العظيم

الذى له الفضل فى بيت الملك
الأب المقدس
الأب المقدس لسيد الأرضين
من يحبه ملك مصر العليا
من يحبه ملك مصر السفلى
من يحبه سيد الأرضين
من يحبه الإله
الذى يمتدحه الملك
الذى يمتدحه إلهه
الذى يمتدحه الرب
الذى أغناه ملك مصر السفلى
الذى عظمه ملك مصر السفلى
الحكيم الذى جعله الملك عظيما وحكيما
الذى جعله الملك ثانيا له

وكانت مفاجأة لى أن أجد شبه انطباق تام بين ما نعرفه عن يوسف الصديق من القرآن والتوراة، وما هو موجود فى المصادر المصرية القديمة عن يويا. فإلى جانب لقب «أبًا لفرعون» النادر الذى حصل عليه كلاهما، هناك نقاط كثيرة أخرى من التشابه، أكتفى هنا بذكر أهمها.

اسم يو-سف

كان جاستون ماسپيرو ـ الذى أصبح مديرا للمتحف المصرى فى بداية هذا القرن ـ هو أول من لاحظ تعدد الطرق التى تمت بها كتابة اسم

يويا فى مقبرته. فقد وجده مكتوبا بأحد عشر شكلا مختلفا، مما جعل ماسپيرو يذهب إلى أنه كان أجنبيا، وأن الكتبة المصريين كانوا يكتبون اسمه كما سمعوه، فهو يويا أو يايا أو يايو أو يايى أو يو فقط. ونحن نجد أن كل هذه الحالات المختلفة لكتابة الاسم تعتمد على أساس حرف الياء المضاف إليه حركة ممدودة، ألف أو واو أو ياء. ولما كان المصريون القدماء ينسبون الشخص إلى الإله الذى يعبده، فمن الواضح أنهم نسبوا يويا إلى إله اسمه «يا». ويصبح الأمر أكثر وضوحا عندما نعرف أن «يا» هذا هو الاسم المختصر لـ «يهوا» إله العبرانيين.

وتقول القصة التوراتية إن الملك المصرى أعطى يوسف اسما مصريا عند تعيينه فى البلاط الملكى، الجزء الأول منه «سف». وبالفعل فنحن نجد أن «سف» كان اسما مصريا، بل ونجد أن مانيتو - الكاهن المصرى الذى كتب تاريخ الأسرات باليونانية فى الإسكندرية خلال القرن الثالث قبل الميلاد - ذكر أن أمنحتب الثالث كان لديه وزير اسمه «أوزار - سف»(*). وهكذا يتضح أن اسم الصديق كان يتكون من جزأين أحدهما عبرى هو «يو» والآخر مصرى هو «سف».

ابنة يوسف

كان ليوسف ولدان بحسب ما جاء فى القصة التوراتية، هما منسى وأفرايم، وكذلك كان ليويا ولدان بحسب المعلومات الموجودة فى

(*) أوزارسف - أو أوزيرسف - يحتوى على لقب واسم - سف: هو اسم علم استخدم فى مصر القديمة. أما أوزير: فهو لقب يرجع إلى أوزوريس، وكان يطلق على الموتى مثلما نطلق عليهم الآن لقب «المرحوم». فيصبح أوزار سف بمعنى المرحوم سف.

مقبرته هما آنن وآى. إلا أن الخلاف بين الرجلين يأتى عندما نعلم أن يويا كانت له ابنة هامة في التاريخ، هي طاى التي تزوجها الملك أمنحتب الثالث وجعلها ملكته، والتى أنجبت له ابنه إخناتون الشهير. ورغم أن التوراة لا تذكر صراحة أن يوسف كانت له ابنة، فهى تحتوى على العديد من الدلالات التى تؤكد وجود هذه الابنة. وإذا علمنا بأن التوراة عادة ما تتحدث عن البنين فقط ولا تذكر البنات إلا فى الحالات الخاصة، فنحن نجد أن الأصحاح ٤٦ من سفر التكوين كان يتحدث عن وصول يعقوب إلى مصر، يذكر أن «جميع النفوس التى أتت إلى مصر الخارجة من صلبه، ما عدا نساء بنى يعقوب، جميع النفوس ست وستون نفسا، وابنا يوسف اللذان ولدا له فى مصر نفسان. جميع نفوس بنى يعقوب. . . سبعون» ـ (٢٦، ٢٧).

فهذا النص يعطينا عدد جميع القادمين من كنعان على أنه ٦٦، إلا أنه عند إضافة يوسف وأبنائه يعطينا الرقم ٧٠ وليس ٦٩. فيوسف وولداه ثلاثة وليسوا أربعة، مما يدل على أن الشخص الرابع من عائلة يوسف لم يذكر اسمه. ولما لم يكن ليوسف غير ولدين هما «منسى» و«أفرايم» فمن الطبيعى أن يكون الثالث أنثى. ويصبح من الممكن تصور أن هذا الشخص الرابع ليس سوى طاى ابنة يويا التى صارت ملكة على مصر، عندما نعلم من القصة التوراتية أن يوسف كان يلجأ إلى الملكة عندما يحاول التأثير على زوجها لتحقيق رغبة خاصة له، فهو ـ بحسب ما جاء بالأصحاح ٥٠ من سفر التكوين ـ طلب من زوجة الملك أن تتوسط له لدى فرعون للسماح له بالسفر لدفن يعقوب فى كنعان.

فكيف يطلب يوسف وساطة الملكة إلا إذا كانت أقرب إليه من الملك؟

ولد يوسف فى كنعان وتربى حتى بلغ سن الصبا ، وعلى هذا فهو ينتمى إلى أرض كنعان فى جنسيته الأصلية ، كما أنه ينتمى عرقيا وسلاليا إلى العبرانيين ذوى الأصل السامى العربى . إلا أن الرواية التوراتية تذكر لنا أن الملك المصرى منحه اسما مصريا عندما تم تعيينه وزيرا فى بلاطه ، كما زوّجه ابنة كاهن عين شمس المصرية . عندما قام ملك مصر بتعيين يوسف فى خدمته ، أعطاه اسما مصريا وزوجة مصرية ، فكان هذا بمثابة منحه الجنسية المصرية ، فلا يعقل أن يتم تعيين أجنبى فى وظيفة أهم وزير بالبلاط الفرعونى . ولم يقبل بنو إسرائيل فى صفوفهم إلا من كانت أمه من ذات السلالة بصرف النظر عن الأب ، وهذا هو نفس الموقف المتبع حتى الآن بين اليهود حتى فى دولة إسرائيل . ولهذا فإن ولدى يوسف من زوجته المصرية - منسى وأفرايم - حسب الرواية التوراتية ، لم يتم اعتبارهما من أحفاد إسرائيل إلا بعد أن أعطاهما يعقوب البركة قبل وفاته واعتبرهما ولديه بالتبنى . أما طاى ابنة يوسف التى لم يرد ذكرها صراحة فى التوراة ، فلم يتم قبولها فى هذه السلالة . ومعنى هذا أن الملك منح يوسف الجنسية المصرية عند تعيينه له فى وظيفته الجديدة ، فهو كنعانى الأصل مصرى بالتجنس .

وأول من أثار قضية الجنس السلالى ليويا كان هو «اليوت سميث» أستاذ التشريح الذى قام بفحص جسد يويا عند العثور على مقبرته عام ١٩٠٥ ، والذى أنشأ أول قسم للتشريح بطب قصر العينى فى بداية القرن العشرين . وكان السبب فى إثارته هذه القضية هو ما وجده مختلفا فى ملامح يويا عن باقى المصريين القدماء ، الذين قام بفحص

بقاياهم. وبعد ما أثار اليوت سميث فى تقريره الطبى مسألة الملامح غير المصرية ليويا، ختم تقريره معلقا:

«عندما نأتى للبحث عن الشخصية السلالية لجسد يويا، فليس هناك إلا القليل الذى يمكن الاعتماد عليه كعلامات واضحة لأصله، فمن التهور تقديم رأى نهائى بخصوص جنسية يويا».

وبالطبع فإن اليوت سميث قام بفحص جسد يويا فى السنوات الأولى للقرن العشرين، فى وقت لم تكن فيه وسائل الفحص الطبى قد تقدمت إلى درجة تمكنه من الوصول إلى نتائج أكثر تحديدا. أما الآن فيمكن - عن طريق استخدام أجهزة الأشعة وقياس أبعاد الجمجمة، وكذلك عن طريق تحليل السائل الحمضى DNA - التعرف على الأصل السلالى ليويا بقدر أكبر من الدقة.

وليس هناك دليل على أن يويا كان من نبلاء أخميم كما يذهب البعض، فلم يعثر بهذه المدينة على أية بقايا لها علاقة بعائلته، وكل ما يربطه بها هو أنه كان - بحسب ما جاء فى ألقابه - «مشرفا على مواشى (الإله) مين فى أخميم»، ولكنه كان كذلك «مشرفا على مواشى آمون فى طيبة». بيد أن زوجته «تويا» كانت لها علاقة أكبر بهذه المدينة، إذ كانت رئيسة الحريم بمعبد مين فى أخميم. وتم فى السنوات الأخيرة العثور على دليل يربط يويا بالكنعانيين المقيمين فى مصر - بل ويربط القصر الملكى نفسه بهم - بشكل أكثر وضوحا. فلقد عثر الأثرى الفرنسى «آلان زيفى» أخيرا فى سقارة على مقبرة لأحد الوزراء فى الفترة التى أشرك أمنحتب الثالث ابنه إخناتون معه فى الحكم، لم

نكن نعرف عنه شيئا من قبل. وجاء اسم هذا الوزير الذى عثر على عظامه داخل المقبرة، «عبريا» أو «عبر إيل»، مما لا يترك مجالا للشك فى أصله السلالى. وتبين أن هذا الوزير - الذى وجدت فى مقبرته هدايا من كل من أمنحتب الثالث وإخناتون - كان هو الذى خلف يويا فى كل وظائفه بعد وفاته، إلى أن مات فخلفه آى بعد ذلك. كما تبين أن الملكة طاى ابنة يويا وضعت فى قبر عبريا صندوقا عليه اسمها، تمامًا مثل الصندوق الذى وضعته فى قبر أبيها يويا، مما يؤكد وجود علاقة قرابة بينهما، بحسب ما قال آلان زيفى.

يوسف مسئول عن سلاح العجلات

العصر الذى عاش فيه يويا معروف لنا فى أيام الملك أمنحتب الثالث، فى النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وعلى هذا تكون النقطة التالية فى بحثنا هى محاولة التعرف على الزمن الذى عاش فيه يوسف وأسرته. فرغم وجود العديد من عناصر التشابه الأساسية بين حياتى يويا ويوسف، إلا أن هذا وحده لا يكفى للقول بأنهما يمثلان شخصا واحدا. وبالطبع يجب التأكد من أن كلا منهما عاش فى مصر، فى ذات العصر التاريخى.

ليس هناك من يجادل فى أن بنى إسرائيل كانوا من بين القبائل العبرانية، وأول ما ظهر العبرانيون على ساحة التاريخ كان فى كنعان بفلسطين فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أى منذ أيام تحتمس الثالث أعظم ملوك العالم القديم، الذى أقام أول إمبراطورية مصرية بين النيل والفرات. فهناك عدة إشارات إلى أقوام عبيرو وخبيرو

وردت فى رسائل تل العمارنة، التى أرسلها حكام كنعان إلى الملوك المصريين. وليس هناك أية إشارة فى أى من المصادر التاريخية على وجود العبرانيين فى مصر أو فى أى من بلدان الهلال الخصيب قبل هذا التاريخ. وأقدم ظهور لكلمة «عبيرو» الدالة على العبرانيين فى المصادر المصرية، يرجع إلى عصر الملك تحتمس الثالث من ملوك الأسرة ١٨ والذى حكم لأكثر من خمسين عاما خلال القرن ١٥ ق.م. وعلى هذا يكون علينا البحث عن دلالة أخرى فى قصة يوسف، تساعدنا على تحديد الزمن الذى عاش فيه.

وهنا نجد أن الإشارة إلى «العجلات» الحربية، وردت ثلاث مرات فى قصة يوسف التوراتية. المرة الأولى عندما عينه الملك فى منصبه الوزارى وأعطاه «مركبته الثانية»، أما المرة الثانية فكانت عندما وصل يعقوب وأبناؤه إلى الحدود المصرية «فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل أبيه إلى جاسان». كما يؤكد هذا المعنى كذلك الطبيعة العسكرية للجنازة التى نظمها يوسف عند دفن أبيه فى كنعان، حيث «صعد معه مركبات وفرسان. فكان الجيش كثيرا جدًا». ووجود هذه الإشارات إلى العجلات الحربية فى مصر فى قصة يوسف التوراتية، يدل على أن هذا النوع من الآلات الحربية كان منتشرا فى البلاد عند وصوله إليها. ولما كانت الفكرة السائدة فى النصف الأول من هذا القرن، تذهب إلى أن الحكام الهكسوس - الذين سيطروا على حكم مصر ما بين منتصف القرن ١٧ إلى منتصف القرن ١٦ ق.م. - هم الذين أدخلوا العجلات الحربية إلى مصر للمرة الأولى، فقد ساد الاعتقاد بأن مجىء يوسف إلى مصر كان فى أيام الهكسوس.

عصر الهكسوس

كان عصر الدولة القديمة فى مصر - وهى الفترة التى حكم فيها البلاد الأسرات الأولى التى قامت ببناء الأهرامات - هو فترة تقدم عمرانى ورخاء اقتصادى واستقرار سياسى. إلا أن هذه المرحلة أعقبتها فترة انهارت فيها سيطرة الحكومة المركزية وانقسمت البلاد إلى مقاطعات، فانتشرت الجرائم وكثر قطاع الطرق، وساد القحط والجوع، وتوقفت أعمال البناء والمعمار. واستمر الحال كذلك إلى أن بدأ عصر جديد من الاستقرار السياسى والاجتماعى فى أيام الدولة الوسطى وتكونت الدولة الوسطى من ثلاث أسرات هى ١١ و ١٢ و ١٣، إلا أن السلطة الحكومية المركزية بدأت تضعف تدريجيا منذ أيام حكم الأسرة الثالثة عشرة وانهارت تماما بعد ذلك، حيث كان الملوك يتعاقبون على عرش مصر لفترات وجيزة قد لا تزيد على بضعة شهور، وفى خلال قرن ونصف حكمت فيها هذه الأسرة، جلس على عرش الأرضين أكثر من ستين ملكا، وبانتهاء حكمها كان الهكسوس قد سيطروا على كل أرض الدلتا.

أول ما فرض الهكسوس سيطرتهم كان على مدينة أواريس المحصنة عند القنطرة شرق فى عام ١٧٢٠ ق.م، وراحوا بعد ذلك يوسعون منطقة نفوذهم غربا حتى أصبح لهم سيطرة كاملة على كل أنحاء الدلتا مع نهاية حكم الأسرة الثالثة عشرة. وأخيرا قام ساليطس زعيمهم بالاستيلاء على العاصمة منف - فى عصر توت موس - وأعلن نفسه ملكا، وأصبح مؤسسا للأسرة الخامسة عشرة. وهكذا - بينما كان ملوك الأسرة ١٣ المصريون يحكمون الصعيد من طيبة - أصبح الملوك الهكسوس يحكمون الدلتا من أواريس، بل إن السلطة المركزية تفتتت

عندما أعلن نبلاء المقاطعات أنفسهم ملوكا فيما يعتبر الأسرة ١٤، ودان أغلبهم بالولاء للهكسوس، وكان آخر هولاء الملوك يسمى نحسى الذى تعاون مع السلطة الجديدة.

وكل ما نعرفه عن الهكسوس وصلنا عن طريق المصادر المصرية، حيث سيطروا على السلطة فى مصر القديمة، ومنهم كان ملوك الأسرة ١٥ - وولاتهم المعاصرون لهم الذين يدخلون ضمن قائمة الأسرة ١٦ - الذين حكموا البلاد ما بين منتصف القرن السابع عشر ومنتصف القرن السادس عشر ق. م. وأول من أطلق عليهم اسم الهكسوس كان المؤرخ المصرى مانيتو الذى عاش خلال الجزء الأول من القرن الثالث السابق للميلاد، أيام حكم البطالمة. وبالرغم من أن مانيتو ترجم كلمة هكسوس على أنها تعنى «الملوك الرعاة»، إلا أن الترجمة الحديثة للكلمة المصرية «حكا خاسوت» هو «حكام البلاد الأجنبية» وأغلبية أسمائهم تدل على أصل عربى سامى. وضاعت كتابات مانيتو الأصلية، وكل ما وصل إلينا منها جاء فى كتابات الآخرين، وبحسب ما أورده الكاتب اليهودى يوسيفوس فإن مانيتو تحدث عن بداية سيطرة الهكسوس قائلا:

«كان هناك ملك من ملوكنا اسمه تيمايوس، حدث فى أثناء حكمه - لا أعلم بأية كيفية - أن الرب كان كارها لنا (أو غاضبا علينا)، فحدث بطريقة غريبة أن رجالا من المناطق الشرقية، كان لديهم من الجرأة ما جعلهم يقومون بغزو بلادنا، وأخضعوها عنوة بسهولة دون أن نقاتلهم فى معركة. عندما جعلوا حكامنا تحت سيطرتهم، أشعلوا النيران فى مدننا وهدموا معابد الآلهة، واستخدموا كل السكان بطريقة بربرية:

فهم قد ذبحوا بعضهم، وقادوا أطفالهم وزوجاتهم إلى العبودية. وفي النهاية جعلوا واحدا منهم ملكا، وكان اسمه ساليطس، الذى عاش في منف وجعل مصر العليا ومصر السفلى تدفعان له الجزية، وترك حاميات في الأماكن التى كانت مناسبة لهم أكثر. وكان هدفه الرئيسى هو تأمين المناطق الشرقية ... ولما وجد في منطقة (محافظة) سنيت (شرقى الدلتا) مدينة مناسبة لأغراضه، والتى تقع على القناة البوباستية (للنيل)، وبسبب الفكر الدينى كانت تسمى أواريس، أعاد بناءها، ووضع بها حامية كبيرة، للحفاظ عليها».

تكونت دلتا النيل من الطمى الذى جاءت به الفيضانات على مر العصور من بلاد الحبشة، وكانت غالبية أرض الدلتا خلال الألف الثالثة السابقة للميلاد، تغطيها مستنقعات مياه الفيضان في معظم أيام السنة، فلم يكن ممكنا زراعتها أو سكناها. وبدأت أرض الدلتا ترتفع عن سطح البحر وتنحسر عنها المياه منذ بداية الألف الثانية ق.م.، ولهذا بدأ المصريون يسكنونها منذ أيام الأسرة الثانية عشرة. وبسبب ضعف الحكومة المركزية الذى ظهر منذ منتصف عصر الأسرة ١٣، وعدم استطاعتها إقامة نقاط قوية للحراسة عند حدود سيناء، تمكنت بعض الأقوام القادمة من آسيا من اختراق الحدود وإقامة مساكنها في منطقة شرق الدلتا الخصبة. واستمرت عملية الهجرة هذه لعدة قرون أصبحت بعدها منطقة شرق الدلتا تحتوى على جالية آسيوية كبيرة العدد، استطاعت بعد ذلك أن تفرض سيطرتها الكاملة على منطقة الحدود المصرية الشرقية. بل إن هؤلاء المهاجرين انتشروا كذلك في باقى أنحاء البلاد، ثم قاموا بالاستيلاء على السلطة في الدلتا وبعض مناطق

الصعيد، كما اضطر حكام طيبة المصريون إلى دفع الجزية لهم، وكانت النوبة قد استقلت عن مصر فى تلك الفترة.

تمت سيطرة الهكسوس على مرحلتين، ففى المرحلة الأولى التى بدأت ١٧٢٠ ق. م.، استولوا على مدينة محصنة كان ملوك الأسرة الثانية عشرة أقاموها فى شمال سيناء - عند منطقة القنطرة شرق الحالية - كانت تسمى «حوت وعرت»، وهى المعروفة باسم أواريس التى أعادوا بناء تحصيناتها لتصبح عاصمتهم الحربية، ومن هناك راحوا ينشرون نفوذهم تدريجيا على باقى مناطق الدلتا، كما مدوا سيطرتهم على الطريق الذى يربط شمال سيناء بفلسطين. أما المرحلة الثانية فبدأت عام ١٦٧٤ ق. م. عندما قاموا بالاستيلاء على العاصمة منف، ودام حكم الهكسوس بعد ذلك ١٠٨ أعوام، جلس خلالها ستة من ملوكهم على عرش مصر.

وتختلف طريقة بناء الاستحكامات التى استخدمها الهكسوس على الطرق التى كانت مستخدمة قبل ذلك، فى أنها لا تعتمد على الأسوار القائمة، وإنما تضيف إليها متراسا على شكل جرف منحدر يتكون من الحصى والحجر المجروش الذى يتم دكه حتى يتصلب، يحيط به خندق عميق يزيد من صعوبة الوصول إليه. وليس هناك عناصر حضارية خاصة بالهكسوس جلبوها معهم - من موطنهم الأصلى - وإنما نراهم قبلوا بسهولة مظاهر الحضارة المصرية فى الكتابة والعبادة والفن، وإن لم يتركوا كثيرا من المعمار. فهم عبدوا الإله المصرى «سيت» الذى تقول الأسطورة بأنه قتل أوزوريس وتصارع مع ابنه حورس، كما كانت لهم معبودات كنعانية مثل بعل وعشتاروت

التى رسموها عارية. وفى أواخر العصر الهكسوسى، نشب نزاع بين ملكهم أبو فيس وبين «سى كنن رع» أمير طيبة، الذى جمع جيشا لمحاربة الهكسوس ونجح فى طردهم من الصعيد شمالا حتى أسيوط، إلا أن أمير طيبة سقط فى القتال وخلفه ابنه كاموس، الذى استمر فى ما بدأه أبوه، وتمكّن من التخلص من سيطرة الهكسوس حتى حدود الفيوم. إلا أن كاموس ـ هو الآخر ـ لقى مصرعه فى المعارك، وخلفه فى إمارة طيبة أخوه الأصغر أحمس، الذى تمكن من طرد الهكسوس تماما من مصر عام ١٥٦٧.

قال فلافيوس يوسيفوس ـ الذى اعتقد خطأ بأن الهكسوس هم أنفسهم قبائل بنى إسرائيل، ولهذا اعتبر أن خروجهم من مصر وقع عند بداية حكم الأسرة ١٨ التى طردتهم ـ إن مانيتو تحدث فى الجزء الثانى من كتابه عن بنى إسرائيل فى مصر، إلا أن المؤرخ اليهودى استخدم الرواية التى أوردها مانيتو عن مجىء الهكسوس إلى مصر وطردهم منها، للتدليل على صحة رواية التوراة الخاصة بوصول أبناء إسرائيل إلى مصر وخروجهم منها. ويذكر يوسيفوس على لسان مانيتو أن الهكسوس: «خرجوا مع جميع عائلاتهم ومتعلقاتهم ـ لا يقل عددهم عن مائتين وأربعين ألفا ـ ورحلوا من مصر.. إلى سورية (بلاد الشام)».

أما مانيتو الذى كتب تاريخ الأسرات باللغة اليونانية ـ بناء على طلب بطليموس الثانى خلال القرن الثالث ق.م. ـ فهو قد فرق فى كتابه بين الحكام الهكسوس وبين عصر موسى وأتباعه. فبينما كان طرد الهكسوس هو بداية لحكم الأسرة الثامنة عشرة، فإنه ينسب ظهور موسى إلى حكم الملك أمنحتب (الثالث)، الذى جلس على

العـرش بعـد ذلك بقـرن ونصف من الزمـان . بل إن المؤرخ المصرى يقول بأن أتباع موسى كانوا مصريين أصلا ، انضم إليهم أقوام آسيوية بعد ذلك . فقد جمع الفرعون عددا من أتباعه ووضعهم فى المحاجر ، حيث أوكل إليهم القيام بأعمال تكسير الحجارة الشاقة عقابا لهم .

إلا أن أعمال الحفر الأثرى التى تمت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى المواقع الهكسوسية - سواء فى منطقة تل الضبعة بشرق الدلتا أو تل حبـوة بالقنطرة شرق - لم تظهـر وجـود أية نصوص أو رسوم أو بقـايا للعـجلات فى تلك المواقع . كـما أن النصوص المصرية التى تم العـثور عليهـا ، والتى تصف تفاصيل المعارك التى خاضهـا المصريون لتحرير بلادهم من الهكسـوس ، وإن كـانت تشـير إلى وجـود الخيـول لدى الهكسوس ، إلا أنها تخلو تماما من أى ذكر لوجود العجلات الحربية . فـالكتـابات المصرية التى سـجلت تفـاصيل المعـارك التى دارت بين الهكسوس والمصريين - سواء فى ذلك الموجودة على لوحة كاموس أمير طيبة الذى بدأ حرب التحرير ضد الهكسوس ، أو فى مقبرة ابن أبانا بأسوان الذى سجل تفاصيل معارك أحمس لطردهم من البلاد ، أو فى تاريخ مانيتو فى عصر البطالمة الذى وصف فيه كيفية سيطرة الهكسوس على مصر - لم ترد بها أية إشارة لاشتراك العجلات فى هذه المعارك .

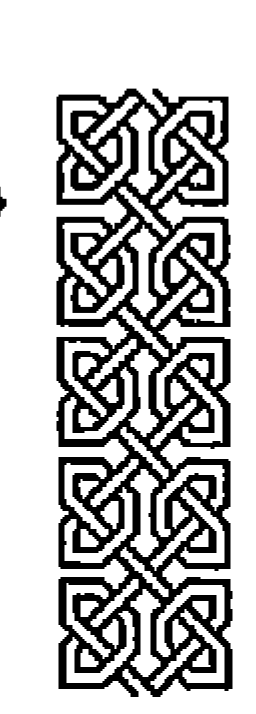
وأول ما عثر على إشارات كتابية أو مرسومة أو بقايا للعـجلات ، كـان فى عـصر الأسرة الثامنة عشرة المصرية ، فقد وجد رسم لعجلة بمقبرة أوزر فى الأقصر ، الذى كان أحد نبلاء تحتمس الأول . وأكدت الأبحـاث التى صـدرت حـديثـا - خـصـوصـا فى الولايات المتـحـدة الأمريكيـة - أن المصريين هم الذين استـخـدموا الخيـول التى تركـهـا

الهكسوس وراءهم، فى صنع العجلات الحربية التى استعملوها لأول مرة فى مطاردة فلول الهكسوس فى بلاد كنعان، وتمكنوا بفضلها من تكوين إمبراطوريتهم. وعلى هذا أصبح من الضرورى البحث عن يوسف ـ ليس فى زمن الهكسوس ـ وإنما فى عصر الأسرة الثامنة عشرة التى استحدث فيها المصريون نظام العجلات الحربية.

وكما رأينا سابقا فإن ألقاب يويا التى تم العثور عليها فى مقبرته، يدل أحدها على حصول هذا الرجل على وظيفة هامة، حيث كان «وكيل الملك لسلاح العجلات». جاء هذا اللقب من بين الألقاب التى وردت فى كتاب «مقبرة يويا وتويا» لمكتشف المقبرة تيودرور ديفيز الصادر فى لندن عام ١٩٠٧ وترجمها ما سپيرو مدير المتحف المصرى حين ذاك: «نائب جلالة الملك للعجلات». ويقول الدكتور آلان ريتشادر شولمان ـ فى عدد ٢ من جورنال دراسات المركز الأمريكى فى مصر لعام ١٩٦٣ ـ إن يويا كان أول من حصل على هذا اللقب. وكما رأينا سابقا، فإن ذكر العجلات الحربية ـ الذى ورد فى قصة يوسف ـ على أنها سلاح مستقل فى مصر، لا يمكن أن يتحقق إلا منذ عصر أمنحتب الثالث.

الفصل الرابع

موسى النبى والملك إخناتون



﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة المائدة: الآية ٢٠)

وهكذا نرى أن يويا قائد سلاح العجلات ويوسف الصديق يتفقان فى العديد من الصفات. فكلاهما حصل على لقب نادر فى مصر القديمة: «أبًا لفرعون»، وكلاهما حمل نفس الاسم يو-سف الذى يتكون من جزأين أحدهما كنعانى والآخر مصرى، وكلاهما ينتمى إلى سلالة أجنبية، وكلاهما كان له ولدان وابنة. والأهم من هذا أن كليهما كان مسئولا عن سلاح العجلات الحربية، وهذه الوظيفة لم تظهر فى التاريخ إلا منذ عصر أمنحتب الثالث وكان يويا أول من شغلها.

وأدى التوصل إلى تحديد عصر يوسف الصديق فى مصر بفترة حكم أمنحتب الثالث - الذى حكم مصر حوالى ٣٨ عاما من ١٤٠٥ قبل الميلاد - إلى أن أصبح الطريق مفتوحا أمامنا لتحديد عصر موسى عليه السلام، بل والتعرف كذلك على الشخصية التاريخية لنبى التوحيد فى مصر. فهل كان الشخص الذى نعرفه من كتب التاريخ باسم إخناتون، هو ذات الشخص الذى عرفناه باسم موسى من الكتب الدينية، فكلاهما عاش فى نفس الزمان والمكان؟!

موسى مصرى؟!

كان سيجموند فرويد - عالم النفس اليهودى الشهير - هول أول من أعلن فى كتابه الأخير «موسى والتوحيد»، الذى تم نشره فى لندن عام

١٩٣٩ ، عن اعتقاده بأن موسى كان مصريا وليس عبرانيا. لاحظ فرويد وجود تشابه بين قصة ميلاد موسى وميلاد عدد من العظماء فى العالم القديم، أمثال «أجاد» الملك الأكادى و«روميلوس» الذى بنى مدينة روما و«أوديب» الذى وردت قصته فى الأساطير اليونانية. ففى كل هذه الحالات كان الطفل - خوفا على حياته عند مولده - يتم تهريبه من بيت عائلته، ويتولى قوم آخرون تربيته، ثم يعود بعد ذلك إلى عائلته الحقيقية. إلا أن قصة موسى التوراتية تختلف عن تلك القصص فى نقطة واحدة. فبينما الطفل فى جميع تلك الحالات يولد لعائلة ملكية ويهرب من القصر الملكى لتقوم عائلة فقيرة بتربيته، فإنه فى حالة موسى يتم تهريبه من بيت العبرانيين الفقراء الذى ولد فيه ليتربى فى القصر الملكى. وفسر فرويد هذا الاختلاف بأنه دلالة على تعمد كتبة القصة التوراتية إخفاء الأصل المصرى للبطل الذى كانوا يعتقدون فيه، وجعله عبرانيا. وأظهر أن كلمة «موسى» التى كانت تستخدم كاسم علم فى مصر بمعنى (الابن)، توت موسى، رع موسى إلخ، لم تكن عبرية بل مصرية. وتساءل العالم اليهودى كيف يمكن للأميرة المصرية أن تعرف اللغة العبرية؟! ثم أنه لكى يصبح معنى الاسم بالعبرية (الذى انتشل من الماء)، يجب أن يكون «موشوى» وليس «موسى».

لم يكن النمساوى سيجموند فرويد الذى عاش فى النصف الأول من القرن العشرين هو أول من قال بأن موسى كان مصريا. فقد ذكر «مانيتون»، المؤرخ المصرى الذى كتب تاريخ الأسرات باللغة اليونانية بناء على طلب بطليموس الثانى خلال القرن الثالث ق. م.، مؤكدا

هذه الحقيقة. بل إن مانيتون يجعل غالبية أتباع موسى كذلك من المصريين(*). فهو يقول بأن الملك المصرى جمع عددا من المصريين أتباع «موسى»(**)، ووضعهم فى المحاجر حيث أوكل إليهم القيام بأعمال تكسير الحجارة والأعمال الشاقة عقابا لهم. وبحسب ما وصلنا من كتابات مانيتون، فقد بلغ عدد من تبع موسى ٨٠ ألفا من بينهم أناس من المتعلمين ومن الكهنة، من الذين أسماهم «موبوئين»، لأنهم كانوا لا يقدسون الحيوانات التى يقدسها باقى المصريين، فكانوا يذبحونها ويأكلون لحومها. ثم جمع الملك كل هؤلاء الموبوئين ووضعهم فى مكان بمدينة «أواريس» التى كانت عاصمة للهكسوس من قبل، وهناك انضم إليهم عدد من الآسيويين، وأصبحوا يهددون أمن البلاد إلى أن تم طردهم. بل إن مانيتون حدد الفترة التى عاش بها موسى بذات الفترة التى عاش فيها إخناتون ووالده أمنحتب الثالث.

(*) اقرأ فى سورة طه ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ (موسى وهارون) ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم...﴾ (الآية: ٦٣)، واقرأ فى سورة الأعراف ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ...﴾ (الآية: ١١٠)، واقرأ فى سورة الشعراء ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم...﴾ (الآية: ٣٥) والكلام فى الآيتين الأولتين موجه من ملأ فرعون لبقية الشعب، بينما فى الآية الأخيرة من فرعون نفسه لشعبه.

(**) اقرأ فى سورة الشعراء ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الآيتان ٣٩، ٤٠)، توحى هاتان الآيتان بأن الناس لم يكونوا يتبعون السحرة ورؤساءهم من الكهنة وفرعون، فهل كانوا يتبعون موسى؟!

مولد إخناتون

عندما نأتى لتحديد المنطقة التى ولد فيها إخناتون ، تواجهنا مشكلة لابد لنا من الوصول إلى حل لها . فبينما تؤكد الروايات القرآنية والتوراتية أن ميلاد موسى عليه السلام تم فى منطقة يوجد بها قصر ملكى بالقرب من مساكن العبرانيين ، نجد أن مساكن العبرانيين كانت تقع بجاسان عند القنطرة شرق الحالية ، بعيدا عن القصر الملكى . كانت طيبة - الأقصر الحالية - هى المركز السياسى والدينى لدولة الأرضين المصرية ، بينما أقام الملوك فى مدينة منف بالقرب من سقارة الحالية . ولم يتم بناء قصور ملكية شرقى الدلتا ، إلا منذ بداية حكم الملوك الرعامسة الذين كانوا الأسرة التاسعة عشرة . ولهذا يصبح من الضرورى العثور على دليل يثبت وجود قصر للعائلة المالكة أيام أمنحتب الثالث بالقرب من مساكن العبرانيين فى ذات منطقة القنطرة شرق ، لكى يمكن إثبات العلاقة بين مولد كل من موسى وإخناتون .

فقد حدث تغير جوهرى فى مسار التاريخ عندما وقع أمنحتب الثالث فى حب طاى - ابنة وزيره يويا - وتزوجها فى السنة الثانية لحكمه ، وجعلها ملكة على مصر خروجا على التقاليد المصرية . كانت التقاليد لا تمنع الملك من اتخاذ أى عدد من الزوجات ، ولكن الملكة - التى يخلف أبناؤها أباهم على العرش - لابد لها من أن تكون هى الوريثة الشرعية ، أى الابنة الكبرى للملك السابق . كان أمنحتب قد تزوج - عند توليه العرش - أخته سيت آمون ، التى كانت لا تزال طفلة فى مرحلة الحضانة عند موت أبيهما تحتمس الرابع . وبحسب التقاليد المصرية ، فإن من يتزوج الابنة الكبرى للملك ، يصبح له الحق فى خلافته على العرش ، لذلك كان الأمراء المصريون يتزوجون أخواتهم حتى لا يخرج المُلك

عنهم. ولأن أمنحتب الثالث لم يلتزم بهذه التقاليد عندما أصر على اعتبار طاى هى الملكة، فقد رفض الكهنة والحكماء اعتبار الولد الذى تنجبه له ابنا شرعيا لآمون. وبالفعل فعندما أنجبت طاى ابنها الأول تحتمس - والذى عثر على اسمه منقوشا فى مقبرة توت عنخ آمون - فإنه سرعان ما اختفى هذا الصبى فى ظروف غامضة بعد أن عينه أبوه وليا للعهد. ولهذا كان من الطبيعى أن تصاب الملكة طاى بالقلق عندما حل موعد ولادتها الثانية، ومن الطبيعى كذلك أن يخشى الملك نفسه حدوث مواجهة أخرى بينه وبين الكهنة لو أنجبت له طاى ولدا ثانيا.

وهناك أدلة أثرية تبين أن أمنحتب الثالث وهب إلى زوجته طاى مدينة زارو بالقنطرة شرق(*) عند جاسان فى عامه الحادى عشر لتقيم

(*) نشرت جريدة الأهرام بتاريخ (٣١/ ٥/ ١٩٩٩) فى صفحتها الأولى، خبر الكشف عن أول معبد فرعونى فى سيناء. وجاء فى الخبر ما يلى:

- «وتكمن أهمية الكشف فى أنه يحدد موقع مدينة «ثارو»، وبداية طريق حورس الحربى القديم بين مصر وفلسطين، وهى مدينة محصنة أقيمت على بداية هذا الطريق، وبذلك يكون الكشف قد حدد بوابة مصر الشرقية.
- وصرح الدكتور جاب الله علىّ جاب الله الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار لمندوب «الأهرام» أشرف عبد المنعم بأن المعبد يرجع إلى عصر الدولة الحديثة، ومبنى بالطوب اللبن على مساحة ٢٤٠٠ متر، وذو جدران سميكة يبلغ عرضها أربعة أمتار، ويضم ١٢ صالة، ومحاط بسور سمكه عشر أمتار، بينما بلغ سمك صرح المدخل ثمانية أمتار. وتم العثور داخل المعبد على عدد من التماثيل لآلهة فرعونية، وأشخاص مصنوعة من الجرانيت الأسود والحجر الرملى.
- وأوضح الدكتور محمد عبد المقصود المدير العام لآثار شرق الدلتا وسيناء أن السيد فاروق حسنى وزير الثقافة وافق على اعتماد ٢٠٠ ألف جنيه لاستكمال الحفائر، وإعداد الموقع بعد ترميمه ليكون مزارا سياحيّا، خاصة أنه يقع بالقرب من منطقة شرق التفريعة.

بها، وحفر لها بركة للنزهة عند هذه المدينة. فقد وجد الأثريون عدة نسخ من جعران ملكى أصدره أمنحتب الثالث فى عامه الحادى عشر، أعلن فيه أنه منح زوجته طاى مدينة زارو هدية لها، وحفر بركة بجانب القصر الذى كانت تعيش فيه هناك: «العام ١١، الشهر الثالث للفيضان، اليوم الأول. . أمر صاحب الجلالة بعمل بركة لزوجة الملك العظيمة التى تعيش فى مدينتها زارو-خا».

ولما كنا نعرف أن إخناتون ولد فى العام الثانى عشر لحكم أمنحتب الثالث، حيث إنه صار فى السادسة عشرة عندما أشركه أبوه معه فى الحكم، فى عامه ٢٨، أصبح فى إمكاننا التعرف على كيفية ميلاد إخناتون بالقرب من مساكن العبرانيين. وهكذا نرى كيف تمت ولادة إخناتون فى القصر الملكى الصيفى الجديد بمدينة زارو بمنطقة القنطرة شرق، حيث ذكر النص المنقوش على الجعران الذى أصدره الملك، أن زوجته كانت تعيش فى هذه المنطقة، فى الفترة التى نعلم أنها وضعت فيها إخناتون.

أين تقع أرض جاسان التى سكنها آل يعقوب أثناء إقامتهم فى مصر؟!

عندما وافق ملك مصر على حضور عائلة يوسف الصديق للإقامة فى بلاده لم يسمح لهم بالتجول فيها كما يشتهون، وإنما حدد لهم موقعا معينا يعيشون فيه، بالقرب من الحدود المصرية فى سيناء. وبحسب ما جاء فى سفر التكوين من التوراة، فإن الأرض التى سمح لآل يعقوب بسكناها كانت تسمى «جاسان». إلا أن هذا الاسم غير موجود فى المصادر المصرية، ويبدو أنه يمثل تعبيرا عبريا ليس له علاقة باللغة المصرية

القديمة . ولهذا حاول الباحثون ـ منذ أن تمت ترجمة الكتابات المصرية فى بدايةهذا القرن ـ التعرف على الموقع الجغرافى المصرى الذى سكنه بنو إسرائيل أثناء إقامتهم فى مصر . وبالرغم من وجود اتفاق عام بين الباحثين على أن أرض جاسان لابد أن تكون فى مكان ما شرقى الدلتا ، إلا أنهم يختلفون إلى حد كبير فى تحديد موقعها . ويرى بعض اللغويين أن كلمة «جاسان» مشتقة من الكلمة العبرية «جوس» بمعنى «أرض خصبة» ، حيث إن التوراة تصفها بأنها كانت : «فى أفضل الأرض» المصرية .

ورد اسم «جاسان فى التوراة للدلالة على أرض خصبة تقع شرقى الدلتا المصرية بالقرب من الحدود ، وهى المنطقة التى سمحت السلطات المصرية لبنى إسرائيل بالإقامة فيها عند نزوحهم إلى مصر . فبعد أن عين ملك مصر يوسف وزيرا فى بلاطه ، بدأت سبع سنى الخصب وتلتها سبع سنى القحط ، كما تنبأ الصديق عند تفسيره لحلم الملك . وبحسب الرواية التوراتية ، لم يكن هذا القحط فى مصر وحدها وإنما فى أرض فلسطين كذلك : «وجاءت كل الأرض إلى مصر إلى يوسف لتشترى قمحا . لأن الجوع كان شديدا فى كل الأرض . . فلما رأى يعقوب أنه يوحد قمح فى مصر قال يعقوب لبنيه : لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض . وقال : إنى سمعت أنه يوجد قمح فى مصر . انزلوا إلى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت . فنزل عشرة من إخوة يوسف ليشتروا قمحا من مصر . وأما بنيامين شقيق يوسف فلم يرسله يعقوب مع إخوته . لأنه قال : لعله تصيبه أذية» . الأصحاح (٤١ : ٥٧) ، والأصحاح (٤٢ : ١ـ ٤) .

وعندما وصل أبناء يعقوب العشر إلى مصر ، أتوا إلى يوسف وسجدوا أمامه طالبين شراء القمح ، وبينما استطاع هو التعرف عليهم

فإنهم لم يعرفوه، نظرا للتغير الكبير الذى حدث فى مظهره وملابسه. وبحسب الرواية القرآنية فإنه:

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾ (سورة يوسف: ٥٩ - ٦٠).

وأراد يوسف التأكد من إحضارهم لأخيه بنيامين - أصغر أبناء يعقوب - فطلب منهم إبقاء أحدهم رهينة عنده حتى يرجعوا ببنيامين. وتقول الرواية التوراتية إن يوسف خاطب إخوته قائلا: «إن كنتم أمناء فليحبس أخ واحد منكم... وانطلقوا أنتم وخذوا قمحا لمجاعة بيوتكم. وأحضروا أخاكم الصغير إلى، فيتحقق كلامكم ولا تموتوا». عندئذ تذكروا ما فعلوه بيوسف عندما ألقوه فى البئر رغبة فى التخلص منه «وقال بعضهم لبعض: حقا إننا مذنبون إلى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع، لذلك جاءت علينا هذه الضيقة... وهم لم يعلموا أن يوسف فاهم، لأن الترجمان كان بينهم. فتحول عنهم وبكى». الأصحاح ٤٢: ١٩ - ٢٠، ٢١ - ٢٤.

ويقول القرآن إنهم لما: ﴿ رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ (سورة يوسف: ٦٣ - ٦٤).

إلا أنه وافق فى النهاية على ذهاب بنيامين معهم إلى مصر. وفي هذه المرة دعا يوسف إخوته لتناول الطعام فى بيته، ثم كشف لهم عن

نفسه فى لحظة عاطفية : «أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه إلى مصر ، والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتمونى إلى هنا ، لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى الله قدامكم» الأصحاح (٤٥ : ٤ ـ ٥).

ولما عرف ملك مصر بالقصة وبأن أباه لا يزال حيا ، سمح ليوسف باستدعاء أسرته للحياة بجانبه فى البلاد ، وأرسل معهم عجلات لإحضارهم من مسكنهم بأرض كنعان . وخاطب يوسف إخوته قائلا : «أسرعوا واصعدوا إلى أبى (يعقوب) وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف . قد جعلنى الله سيدا لكل مصر ، انزل إلى ، لا تقف . فتسكن فى أرض جاسان وتكون قريبا منى أنت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل ما لك . وأعولك هناك لأنه يكون أيضا خمس سنين جوعا» الأصحاح (٤٥ : ٩ ـ ١١).

إلا أن الملك لم يسمح لآل يعقوب بدخول وادى النيل للإقامة هناك ، ذلك أن المصريين كانوا فى تلك الفترة ـ خلال حكم ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى القرن ١٤ ق . م . ـ يضعون قيودا على هجرة الكنعانيين إلى بلادهم . فقد حدث قبل ذلك بثلاثة قرون أن نزح عدد كبير من الأقوام الآسيوية ليقيموا فى الأرض الخصبة بالدلتا الشرقية ، وكانت قليلة السكان فى تلك الفترة . ومع مرور الزمن أتى هؤلاء الأقوام بجماعاتهم وعائلاتهم للإقامة معهم ، وصاروا يمثلون أغلبية السكان فى المنطقة الواقعة بين فرع النيل وسيناء . وتحين هؤلاء الفرصة لوجود ملوك ضعفاء على عرش مصر ، وفرضوا إرادتهم أولا على كل مدن الدلتا ، ثم بعد ذلك على مصر كلها . ونحن نعرف هذه الأقوام الآن باسم الهكسوس ، الذين استمرت سيطرتهم على مصر ما يزيد

على المائة عام، حتى تمكن الملك أحمس أمير الصعيد من طردهم وتكوين الأسرة الثامنة عشرة. ولهذا أصبح المصريون بعد ذلك يتخوفون من السماح لجماعات كبيرة من الرعاة بالهجرة إلى بلادهم.

ولما كان الهدف الرئيسى للأثريين الغربيين الذين حضروا إلى مصر خلال القرن الماضى، هو التعرف على جغرافية القصص التوراتية بها، تركز اهتمامهم فى البحث فى شرق الدلتا، خصوصا أن هذه هى نفس المنطقة التى قيل إن خروج بنى إسرائيل من مصر بدأ عندها. فكما يقول سفر الخروج إنه فى عشية الثالث عشر من أبيب - فى شهر إبريل - ترك موسى وأتباعه أرض جاسان: «فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس... وصعد معهم لفيف كثير أيضا مع غنم وبقر ومواش وافرة جداً... وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين(*) مع أنها قريبة... فأدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف» الأصحاح الثانى عشر (٣٧-٣٨)، الإصحاح الثالث عشر (١٧-١٨). وكان الاعتقاد الشائع فى البداية أن جاسان - ومدينة رمسيس - عند صان الحجر جنوبى بحيرة المنزلة، وهذا هو الرأى الذى قبله عالم اللغويات البريطانى السير آلان جاردنر فى البداية. إلا أنه بعد أن أتمت البعثة الفرنسية أعمال الحفر والتنقيب عند صان الحجر، تبين للأثريين أن هذه المدينة لم يكن لها وجود فى تلك

(*) قد يكون فى هذا ردّ توراتىّ على ما زعمته جولدا مائير، ومن قبلها ومن بعدها، بأنه لا يوجد شىء اسمه الفلسطينيون.

الحقبة، ولم يتم بناؤها إلا فى أيام حكم الأسرة الحادية والعشرين، حوالى مائتى عام بعد خروج بنى إسرائيل من مصر.

انتقل الاهتمام بعد ذلك إلى الوادى المنخفض الذى يمتد بين الفرع الشرقى لدلتا النيل وبين بحيرة التمساح ومدينة الإسماعلية، حيث تم العثور هناك على بقايا أثرية ترجع لعهد رمسيس الثانى، عند تل الرطابة وتل المسخوطة. وفى هذه المواقع عملت أول بعثة أثرية بريطانية إلى مصر فى شتاء عام ١٨٨٣ تحت إشراف الباحث السويسرى هنرى نافيل، المتخصص فى المصريات والدراسات التوراتية. وكان هدف البعثة تحديد المنطقة التى عاش بها آل يعقوب أثناء وجودهم فى مصر. ومما دعم الاعتقاد بأن أرض جاسان تعنى هذه المنطقة، أن المترجمين الذين نقلوا التوراة إلى اللغة اليونانية بالإسكندرية خلال القرن الثالث قبل الميلاد - والمعروفة بالترجمة السبعينية - حددوا جاسان بالمنطقة المنخفضة الواقعة عند تل المسخوطة، غربى مدينة الإسماعيلية الحالية، التى أطلقوا عليها اسم «أرض جاسان العربية». إلا أن نافيل ذهب إلى أن جاسان تقع عند مدينة فاقوس بالقرب من دلتا النيل غربا، حيث قرأ اسمها القديم «جسم» الذى يصبح «جسن» - جاسان - فى العبرية؛ لتحوُّل الميم المصرية إلى نون فى هذه اللغة.

كما أن حجم المواقع التى تم العثور عليها فى تل الرطابة وتل المسخوطة لا يدل على إمكانية وجود مدينة كبيرة بها، ولم يتم العثور على أية بقايا للقصر الملكى الذى بناه الرعامسة وصار بمثابة العاصمة

الشمالية للبلاد فى عصرهم. ولما عثر الأثريون المصريون على بقايا قصر رمسيس الثانى عند مدينة قنطير - بالقرب من فاقوس - فى عشرينات هذا القرن، ازداد اقتناع الباحثين بأن هذه المنطقة المحيطة بفاقوس هى التى أطلقت عليها التوراة اسم «جاسان»، وأن قصر رمسيس الذى عثر عليه فى قنطير يمثل هو نفسه مدينة رعمسيس. وقد حاز هذا التفسير قبول الغالبية العظمى من الباحثين الآن، خاصة بعد أن تمكنت البعثة النمساوية بإشراف ما نفريد بيتاك من العثور على بقايا مدن هكسوسية بالقرب من هذه المنطقة.

إلا أننا لو أمعنا النظر لوجدنا صعوبة أساسية هامة تمنعنا من قبول منطقة فاقوس وقنطير على أنها كانت مكان إقامة آل يعقوب فى مصر. فلو صح أن الملك أراد منعهم من دخول البلاد واحتجازهم فى منطقة حدودية بعينها، لما كان هذا الموقع مناسبا لهذا الغرض، فهذه منطقة قريبة من أفرع النيل القديمة، ومن يصل إلى النيل يستطيع الانتقال عن طريقه إلى أى مكان آخر فى البلاد. إذ كان نهر النيل وأفرعه - الوسيلة الرئيسية للانتقال فى مصر القديمة - لا يمكن السيطرة عليها، كما أن منطقة قنطير ليست هى أقرب المواقع إلى الحدود المصرية فى سيناء وليس لها اتصال مباشر بطريق حورس الذى يؤدى إلى فلسطين.

والمنطقة الوحيدة التى كانت معزولة تماما عن وادى النيل، هى الواقعة شرقى مدينة القنطرة الحالية، والتى كانت تقع عند بداية طريق حورس الممتد إلى فلسطين، حيث كانت تحيط بها مياه بحيرة المنزلة فى الشمال وبحيرة التمساح من الجنوب، كما كانت هناك ترعة تربط بين البحيرتين، فتصبح منطقة القنطرة شرق معزولة تماما بالمياه عن باقى

الأرض المصرية. ولم يكن هناك سوى جسر واحد للوصول إلى وادى النيل من هناك، وكان هذا الجسر يقع تحت حراسة عسكرية. وعثرت بعثة الآثار المصرية بقيادة الدكتور محمد عبد المقصود - مدير آثار شمال سيناء - فى السنوات الأخيرة على بقايا مدينة زارو الحربية عند موقع «تل الحبوة» بالقنطرة شرق، وتبين من هذه البقايا أن الإدارتين المدنية والعسكرية كانتا تقعان داخل أسوار المدينة، التى يحيط بها عدد كبير من القرى والمواقع السكنية. وكانت متصلة بالفرع البلوظى للنيل - والذى ليس له وجود الآن - عن طريق ترعة كانت تمر غربى المدينة، وتفصلها عن باقى الأراضى المصرية.

كانت سيناء عندئذ شبه معزولة عن وادى النيل بحاجز من المياه - يمتد بين خليج السويس جنوبا والبحر المتوسط شمالا - تماما مثل قناة السويس حاليا. ففى الجنوب كانت مياه البحر الأحمر تمتد لتتصل بالبحيرات المرة، وكانت المنطقة الممتدة بين هذه البحيرات وبحيرة التمساح عند الإسماعيلية، هى منطقة مستنقعات ينمو فيها البوص، كما امتدت بحيرة التمساح نفسها شمالا لتصل إلى الحدود الجنوبية لمنطقة القنطرة ومن الشمال كانت بحيرة المنزلة تمتد لتصل إلى حدود منطقة القنطرة، وكان هناك فرع من دلتا النيل، هو الفرع البلوظى، يمر بين شمال القنطرة وبحيرة المنزلة، ليصب فى البحر المتوسط عند بلوظة - فى شمال سيناء - شرقى بورسعيد. وسبب التسمية «بلوظة» لأن كل المنطقة التى كان يمر بها النهر - ما بين شمال القنطرة والبحر المتوسط - كانت عبارة عن أرض طينية رخوة، تكونت من طمى النيل، ولم يكن من الممكن السكن فيها أو حتى زراعتها. وعلى ذلك

فإن منطقة القنطرة، كانت هى المنطقة المسكونة الوحيدة فى ذلك الزمان، وقد توصلت إلى أنها تمثل المنطقة التى تسميها التوراة بأرض «جاسان». حفر المصريون قناة ما بين الفرع البلوظى للنهر شمالا وبحيرة التمساح جنوبا، فأصبحت المنطقة معزولة تماما عن الدلتا، إلا عبر جسر أقاموه فوق هذه القناة، وهو السبب فى تسمية المنطقة بـ «القنطرة». وكان الطريق البرى الذى يصل مصر بفلسطين «طريق حورس»، يبدأ عند هذا الجسر ويمتد فى شمال سيناء بمحاذاة البحر المتوسط حتى يصل إلى غزة. وأقام المصريون منذ الأسرة الثامنة عشرة نقاط حراسة على طول هذا الطريق وحفروا الآبار عند هذه النقاط. كما أقاموا أيضا عند الجسر - فى موقع تل الحبوة بشمالى القنطرة - مدينة «زارو» المحصنة، لها بوابة واحدة تجاه الغرب مقابل الجسر، وكان القصر الملكى والإدارة العسكرية تقعان داخل أسوار هذه المدينة، وكان العبرانيون يقيمون خارج أسوار مدينة زارو.

وبعد عصر إخناتون وانتهاء حكم ملوك العمارنة، حول «حورمحيب» - آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة - مدينة «زارو» ومنطقة جاسان المحيطة بها، إلى سجن كبير، وجمع أتباع إخناتون ووضعهم فيه. وعين حورمحيب وزيره وقائد جيشه «با رمسيس» حاكما عسكريا لمنطقة سجن «زارو». وقام «با رمسيس» ببناء مقر لإقامته داخل أسوار المدينة. وعندما خلف با رمسيس حورمحيب على العرش - حيث أسس الأسرة ١٩ - عرف القصر الذى عاش به فى «زارو» باسم «بر رمسيس» أى «قصر رمسيس»، ثم أصبح هذا الاسم نفسه يطلق على مدينة «زارو» نفسها، وهى التى تسميها التوراة «رعمسيس».

موقع زارو.. ومقر رمسيس

تتحدث المصادر التاريخية المكتوبة عن ثلاثة أسماء لمدن هامة بنيت شرقى الدلتا، هى «أواريس» عاصمة الهكسوس و«زارو» المدينة الحدودية الحربية التى بناها ملوك الأسرة الثامنة عشرة عند بداية طريق حورس المؤدى إلى فلسطين، و«بر رمسيس» المقر الملكى الذى شيده ملوك الأسرة التاسعة عشرة من الرعامسة. وعبثا أجهد الباحثون عقولهم وأعملوا معاولهم منذ أن بدأت عمليات الحفر الأثرى فى منتصف القرن الماضى، منتقلين شرقى دلتا النيل من موقع إلى آخر بحثا عن هذه المدن الثلاث، دون جدوى. إلا أن أعمال الكشف الأثرى الحديثة، بينت أن هذه الأسماء الثلاث ما هى إلا مسميات لموقع جغرافى واحد فى أزمنة متعاقبة.

وأواريس هى المدينة التى أعاد الهكسوس تحصينها عند الحدود الشرقية، لتكون عاصمة لهم حوالى مائة عام. إلا أن اسم أواريس اختفى تماما من السجلات، ولم نعد نسمع عنه شيئا بعد أن حرقها أحمس بالنار عند بداية حكم الأسرة الثامنة عشرة. ثم ظهر اسم جديد لمدينة محصنة شرقى الدلتا منذ عصر تحتمس الثالث سادس ملوك الأسرة الثامنة عشرة، هو «زارو» أو «زعرو» كانت تتجمع فيها القوات المصرية ـ التى تصلها بالمراكب ـ قبل أن تخرج منها فى طريقها إلى آسيا. وكان الطريق البرى الذى يصل مصر بفلسطين «طريق حورس»، يبدأ عند مدينة زارو، ويمتد فى شمال سيناء بمحاذاة ساحل البحر المتوسط حتى يصل إلى غزة.

وازدادت أهمية زارو طوال أيام الأسرة الثامنة عشرة، حتى إنها أصبحت فى نهايتها مقرا لأهم شخصية فى الحكومة بعد الملك، ألا وهو «با رمسيس» الذى أصبح قائدا عاما ورئيسا لوزراء حورمحيب آخر ملوك هذه الأسرة. بل إن هذا الوزير هو الذى اعتلى العرش بعد موت الملك باسم رمسيس الأول، وأسس الأسرة التاسعة عشرة، وكان ابنه وخليفته سيتى الأول يعيش معه فى زارو كذلك قبل أن يبدأ فى بناء قصور له فى مناطق أخرى من الأراضى المصرية. ثم بدأنا منذ عصر رمسيس الثانى - ابن سيتى الأول - نسمع عن وجود مقر ملكى باسم «بر رمسيس» أو كما ورد فى شكله الكامل «بيت رمسيس محبوب آمون المنتصر العظيم»، الذى تقول عنه النصوص إنه يقع «عند بداية البلاد الأجنبية ونهاية مصر»، أو فى الموقع الذى تلتقى فيه رمال الصحراء مع طمى النيل شرقى الدلتا. وتدلنا النصوص كذلك على أن موقع بر رمسيس كان فى منطقة حربية محصنة، وتقول بردية أنا ستازيا إنه يقع «فى النقطة التى يتجمع عندها الجنود».

وبينما يخبرنا الكاهن المصرى مانيتون صراحة بأن مدينة أواريس تم بناؤها فى موقع مدينة مصرية سابقة، استطاع المؤرخون الحديثون التوصل - عن طريق النصوص المكتوبة - إلى أن موقع بر رمسيس هو نفس موقع أواريس عاصمة الهكسوس. إلا أن الأثرى المصرى لبيب حبشى استبعد البحث عن عاصمة الهكسوس من منطقة القنطرة شرق، عندما أعلن قبل الحرب العالمية الثانية أن بقايا قصر الرعامسة الذى تم العثور عليه فى منطقة قنتير بمحافظة الشرقية، هو نفسه بر رمسيس الذى ورد ذكره فى النصوص القديمة. ورغم أن الشرط الأساسى للتعرف

على عـاصـمـة الهكسـوس ـ وهو وجـود أسـوار تحيط بهـا وتحـصـينات عسكرية ـ لم يتحقق، إلا أن الغالبية العظمى من علماء المصريات قبلوا تفسير حبشي. فقد عثرت بعثة الحفر النمساوية عام ١٩٦٩ برئاسة الدكتور ما نفريد بيتاك فى منطقة تل الضبعة القريبة من قنتير على جبانة من عـصـر الهكسـوس، وجدت بـهـا جثثا وحليـا وأدوات وأسلحـة تختلف عما كـان يستخدمه المصريون القدماء. وأعلن بيتاك ـ بناء على دراسة هذا الكشف ـ أن هذه الجبـانة تمثل بقايا مـدينة أواريس عـاصـمـة الهكسوس فى مـصر، وأن تل الضبعة وقنتير تعتبران سويا مكانا واحدا لعاصـمـة رمسيس الثانى بر رمسيس التى بنيت فوق أنقاض عاصـمـة الهكسوس أواريس. ومنذ أن أعلن بيتاك هذا الرأى قبل حوالى ثلاثين عـامـا ـ وهو لا يزال يعـمل فى المنطقـة حـتى الآن ـ صـار تحديد مـوقع أواريس مقبولا لدى علماء المصريات فى جميع أنحاء العالم.

واختلفت أنا مع هذا الرأى عام ١٩٨٧، وذهبت فى كتابى «غريب فى وادى الملوك» الذى صدر بالإنجليزية فى لندن فى ذلك العام، إلى اعـتبـار الأسـمـاء الثـلاثة التى وردت فى المصـادر القـديمة – أواريس وزارو وبر رمـسيس ـ تمثل مـوقـعـا واحـدا، وأن هذا الموقع يوجـد عند القنطـرة شـرق. وسـرعـان ما جاءت نتائج الحفريات الأثرية لتؤكد صـحة مـا ذهبت إليه، فبعد عـامين من أعـمال الحفر الأثرى فى مـوقـع تـل حـبـوة الذى يقع على بعـد أربـعـة كـيلومـترات شـمـالى غـرب القنطرة شرق، أذاع محـمـد عبـد المقـصـود الـذى كـان يشـغـل منصب مفتش آثار شـمال سيناء والمشرف على البعثة الأثرية، تقريرا فى المؤتمر الدولى الخـامس لعلمـاء المصريات الذى عـقـد بالقـاهرة فى نوفـمبـر

١٩٨٨ ، تضمن تفاصيل البقايا التى عثر عليها هناك ، ثم أعلن فى النهاية أنه «من الممكن (لنا) الآن التعرف على قلعة تل حبوة على أنها (هى المعروفة باسم) «قلعة الأسود» التى تظهر فى رسوم سيتى الأول بمعبد الكرنك» .

كان عبد المقصود يعتقد بأن ما عثر عليه فى تل حبوة يمثل موقعا يسمى قلعة الأسود ورد فى خريطة بالكرنك لسيتى الأول ، وعلى هذا الأساس سجل رسالته فى البداية لنيل الدكتوراه من جامعة ليل الفرنسية ، بينما ذهبت أنا إلى أن تل حبوة يمثل المدينة الحربية زارو . وعندما نشرت جريدة الصنداى تايمز البريطانية التفسير الذى ذهبت أنا إليه فى عددها الصادر فى ١٥ مايو ١٩٨٩ ، قرر الدكتور يونس البطريق مدير المكتب الثقافى المصرى بلندن حينذاك ، إقامة ندوة لمناقشة هذا الموضوع . وكتب أحمد أبو كف فى مجلة المصور القاهرية بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٨٩ :

«ندوة هامة عقدت هذا الأسبوع فى لندن ، دعا إليها الدكتور يونس البطريق المستشار الثقافى المصرى بالعاصمة البريطانية ، هذه الندوة ناقشت كشفا أثريا هاما جاء بيد المصريين منذ أبريل الماضى فى سيناء الشمالية . الكشف الجديد قال البعض عنه : ما هو إلا قلعة حصينة على الطريق الحربى العظيم المسمى «طريق حورس» وإن هذه القلعة الحصينة بناها رمسيس الثانى ، . . . اشترك فى المناقشات الدكتور أبهيل أستاذ المصريات بجامعة لندن ، والدكتور كينيث كيتشين أستاذ المصريات بجامعة ليفر پول ، ومحمد عبد المقصود الأثرى الذى اشترك فى الحفائر ، وجيفرى سبنسر نائب مدير المتحف البريطانى ، وأحمد

عثمان المصرى المقيم بلندن. . . أكد أحمد عثمان أن هذه المدينة المحصنة هى (موقع مدينة زارو الحربية، وهى كذلك مدينة رمسيس التى بنيت فوق مدينة محصنة أخرى هى مدينة الهكسوس)، والتى بدورها بنيت فوق مدينة محصنة ثالثة من الدولة الوسطى. وقد أخذ العلماء هذا الرأى بحذر، وإن كانوا قد أكدوا أن ما عثرت عليه هيئة الآثار يعتبر من أهم الكشوف الأثرية فى العصر الحديث».

ونفى الدكتور على حسن الذى كان مديرا للآثار حينذاك فى حديثه مع «المصور»، أن يكون موقع تل حبوة يمثل زارو المدينة المحصنة التى ورد ذكرها فى النصوص القديمة.

كما نشرت «المصور» تحقيقا فى عددها الصادر فى ٧ تموز (يوليو) ١٩٨٩ جاء فيه:

«أظهر (الكشف فى تل حبوة) بعض صوامع الغلال وبعض الأفران، وأبراجا فى سور القلعة من الطوب الطفلى، وعظاما آدمية مدفونة، وفخارا من عدة أنواع وأشكال، من بينها فخار غير الذى كان يصنع فى مصر فى تلك الفترة، وهو ينتمى إلى الهكسوس، ويتميز بلونه الأسود المنقط، وملمسه الناعم جداً، وهو يشبه الفخار المكتشف فى تل اليهودية بشرق الدلتا. وقد يكون لهذه القلعة علاقة بالهكسوس. . . لكن على أية حال فإن هذه القلعة الصغيرة لا تشكل مدينة كاملة بأية حال من الأحوال، سواء كانت هى مدينة أفاريس عاصمة الهكسوس أو مدينة بر رعمسيس عاصمة رمسيس الثانى، كما يحاول البعض القول. . .

والذى أثار هذا الجدل، خاصة فى فرنسا وإنجلترا ما كتبه (أحمد عثمان الذى) قال إنه (موقع) مدينة أفاريس عاصمة الهكسوس... وقال إن أفاريس عاصمة الهكسوس، قد بنيت على أنقاض مدينة من الدولة الوسطى الفرعونية، وإن مدينة رعمسيس بنيت على أنقاض مدينة أفاريس، وأن هذه المدن الثلاث كلها ذات طابع عسكرى. و... ناقشت الندوة الرأى الذى طرحه أحمد عثمان والذى يقول إن تل حبوة ما هى إلا مدينة زوار من الأسرة الثامنة عشرة، وإن تحتها يمكن أن تكون أفاريس عاصمة الهكسوس، وافق على هذا الرأى عالم واحد هو الدكتور (إريك) أبهيل أستاذ المصريات بجامعة لندن، واختلف معه الدكتور چيفرى سبنسر نائب مدير المتحف البريطانى، أما الدكتور كبنيث كيتشن أستاذ المصريات بجامعة ليڤرپول فقد قال إن ما كشفته هيئة الآثار فى سيناء الشمالية يعتبر عملا أثريا هاما، ولابد من الانتظار حتى تجرى حفائر فى المواسم القادمة **لأن الكشف عن قصر ملكى بالموقع أو آثار تتعلق بملك من ملوك الهكسوس، يمكن أن يقلب الحقائق ويعيد كتابة التاريخ الفرعونى، بل يعيد رسم خريطة الدلتا**...

والمعروف - كما يؤكد الأثريون - أن هناك مدينة واحدة لعاصمة رمسيس الثانى فى قنتير، وهى تبعد حوالى كيلومترين شمال تل الضبعة، وأصبحت بعد ذلك عاصمة لمصر فى عصر رمسيس الثانى».

ثم نشرت المصور نص التقرير الذى أذاعه محمد عبد المقصود عن نتائج الحفر فى تل حبوة فى موسم ١٩٨٩ كالآتى:

«بعد أن عملت مجسات بعمق ٣, ٥ أمتار فى أحد مخازن الغلال داخل قلعة تل حبوة، وهى المخازن التى عثر فيها على دفنات أيضا داخل أوان فخارية أنبوبية، اتضح أنه يوجد عدة طبقات قبل الوصول إلى الرمال الصفراء الناعمة، وهى طبقة الأرض الطبيعية. وهذه الطبقات شملت الآتى: طبقة رماد متخلف عن الحريق، ثم طبقة من الطوب اللَّبن، ثم طبقة من رديم صلب جداً، ثم طبقة من قوالب الطوب اللَّبن (ربما تكون أرضية مبنية)، بعدها طبقة صلبة جداً على بعد ٢, ٥ أمتار، حيث عثر على فخار تل اليهودية الأسود المنقط (وهو فخار الهكسوس)، ثم طبقة حريق أخرى، ثم بعدها الرمال الناعمة الصفراء على بعد (عمق) ٣, ٥ أمتار».

وتأكد للأثرى المصرى وجود بقايا استحكامات ذات طابع هكسوسى بتل حبوة، فقال للمصور: «إن تل حبوة موقع هكسوسى هام جــــداً... يقع على أول الطريق الحربى العظيم، والدلتا أيام الفراعنة كانت حدودها ممتدة إلى شمال غرب سيناء وكان الفرع البلوظى يصل إليها. ومن الملاحظات الأولية فإن تل حبوة عبارة عن مدينة فرعونية محصنة، بنيت على أنقاض مدينة هكسوسية محصنة أيضا، وأنا - محمد عبد المقصود - أرى أن تل حبوة أشهر من تل الضبعة التى يقول عنها بيتاك إنها مدينة الهكسوس، وهذا اجتهاد، ورأيى العلمى سأقوله حينما أكتب رسالة الدكتوراه».

وهكذا فإن الدكتور محمد عبد المقصود الذى لم يقتنع فى البداية بالتفسير الذى قدمته له، سرعان ما غير موقفه هذا بعد موسم الحفر

التالى عندما وجد ما يؤكد صحة ما توصلت إليه، بل إنه قام بتغيير موضوع رسالته بجامعة ليل الفرنسية من تحديده لموقع تل حبوة على أنه «قلعة الأسود» إلى إثبات أنه مدينة «زارو» الحربية، وبالفعل نال درجة الدكتوراه على هذا البحث بدرجة الشرف العليا. إلا أن الأثرى المصرى - الذى أصبح الآن مسئولا عن آثار شمال سيناء - آثر ترك موضوع مناقشة موقع أواريس الهكسوسية إلى وقت آخر بعد أن يتجمع لديه أدلة أكثر فى المواسم التالية. ومن المؤكد أن أواريس كانت مدينة محصنة تحيط بها الأسوار، فهذا ما تدلنا عليه كافة المصادر الكتابية، كما أنها تقع عند التقاء الأرض السوداء الخصبة مع رمال الصحراء. وبينما لم يعثر بيتاك على أية أسوار للمدينة - لا فى قنتير ولا فى تل الضبعة - فإن تل حبوة هى المدينة الوحيدة التى عثر بها على استحكامات هكسوسية فى مصر، ولن يكون هناك مفر من الاعتراف بأنها تمثل أواريس التى تتحدث عنها النصوص.

ومع أننا استطعنا تحديد المكان الذى ولد فيه إخناتون ووجدناه نفس الموقع الذى ولد فيه موسى بأرض جاسان عند القنطرة شرق، إلا أن هذا وحده لا يكفى لإثبات أن موسى وإخناتون يمثلان شخصا تاريخيا واحدا. فالشرط الأساسى لتطابق الشخصيتين هو وجودهما فى ذات المكان ونفس الزمان، مع انطباق الرأى والعمل، وتعذر أن يكونا شخصين. إذ قد يكون كل منهما ولد فى ذات الموقع، لكن فى زمن مختلف. ونحن نعرف أن إخناتون ولد فى العام الثانى عشر لحكم والده أمنحتب الثالث، فمتى ولد موسى؟ وحتى يمكننا التعرف

على الوقت الذى ولد فيه موسى عليه السلام، لا بد لنا - أولا - من التعرف على تاريخ الخروج عندما قاد موسى أتباعه إلى سيناء.

من هو فرعون الخروج؟!

عندما نحاول تحديد الوقت التاريخى لخروج بنى إسرائيل من مصر، تواجهنا عقبة أساسية، ألا وهى التناقض الموجود فى التواريخ التوراتية. ذلك أن رواية سفر الخروج تقول: «وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت أربع مائة وثلاثين سنة» الأصحاح الثانى عشر: ٤٠. أى أن المدة التى أقامها بنو إسرائيل فى مصر منذ مجئ يعقوب وعائلته إلى أرض جاسان، وحتى خروج موسى وأتباعه من بر رمسيس كانت ٤٣٠ عاما. وإذا ما أضفنا إلى ذلك التواريخ التى وردت بسفر التكوين بخصوص يوسف، حيث قضى فى السجن عامين، وانقضت مدة سبع سنوات الرخاء وسنتين من سنى القحط قبل وصول يعقوب إليه فى مصر، لكانت المدة ما بين دخول يوسف السجن وخروج موسى هى ٤٤١ عاما.

ولما كان الباحثون فى القرن الماضى يعتقدون بأن يوسف قد حضر إلى مصر أثناء حكم ملوك الهكسوس، فقد قام المؤرخون بتحديد وقت الخروج بمدة ٤٤١ عاما منذ الحكم الهكسوسى لمصر. وأوصلتهم هذه الطريقة إلى أن الخروج قد تم فى آخر سنة لحكم مرنبتاح - رابع ملوك الأسرة ١٩ - ويكون طبيعيا أنه مات بعد ذلك مباشرة. وكانت المفاجأة عندما عثر الأثرى البريطانى «فليندرز بيترى» عام ١٨٩٦، على لوحة مرنبتاح المشهورة باسم «لوحة إسرائيل»،

وهى الوثيقة المصرية الوحيدة التى جاء بها ذكر قوم إسرائيل. وتبين أنهم كانوا موجودين فى أرض كنعان عند كتابة هذه اللوحة فى العام الخامس لمرنبتاح، قبل وفاته بخمس سنوات.

كانت مصر قد تعرضت فى العام الخامس لحكم مرنبتاح - ابن رمسيس الثانى وخليفته على العرش - لهجوم على غربى الدلتا، قام به تحالف من القبائل الليبية وقبائل الجزر اليونانية، بقيادة الليبى «مريى». واستولى الغزاة على كل الأرض الواقعة غربى الدلتا وأصبحوا يهددون مدن منف وعين شمس التى أغلقت أبوابها، وصارت فى حالة حصار. وكان الملك فى ذلك الوقت - وقد بلغ الخامسة والستين - موجودا فى «طيبة» العاصمة بصعيد مصر. جمع مرنبتاح جيشا أرسله للقاء العدو بغربى الدلتا، ولم تدم المعركة أكثر من ست ساعات حتى فر زعيمهم «مريى» تاركا وراءه، حذاءه والريش الذى كان يلبسه على رأسه وآلاف المقاتلين الذين كان مصيرهم، إما القتل أو الأسر على يد القوات المصرية.

واستخدم مرنبتاح لوحة قديمة كان «أمنحتب الثالث» قد نقش على أحد وجهيها تفاصيل بناء معبده الجنائزى الذى كان قائما خلف تمثالى «ممنون»، بالضفة الغربية للأقصر، وكتب على وجهها الآخر تفاصيل الهجوم الليبى والهزيمة التى مُنى بها الأعداء. ثم ذكر فى نهاية اللوحة - التى يبلغ ارتفاعها أكثر من ثلاثة أمتار - أسماء البلاد التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت للنفوذ المصرى، وضمنها «قوم إسرائيل» الذين أشار إلى وجودهم بأرض كنعان قائلا: «سحق إسرائيل ولم يبق له نسل».

ووجد المؤرخون أنفسهم فى مشكلة، فإذا كان بنو إسرائيل موجودين فى كنعان فى العام الخامس لحكم مرنبتاح، فكيف يمكن القول بأن خروجهم من مصر كان فى السنة العاشرة والأخيرة لحكمه؟. هذا بخلاف الفترة التى قضاها الإسرائيليون فى التيه فى سيناء قبل دخولهم كنعان - بحسب الرواية التوراتية - والتى استمرت أربعين عاما[*].
ولعجزهم عن الوصول إلى حل لهذا المأزق وإصرارهم على اعتبار تواريخ التوراة هى الأساس للبحث التاريخى، غير الباحثون فكرتهم السابقة. فلم يعد مرنبتاح هو فرعون الخروج، بل إنهم غضوا النظر تماما عن وجود فرعونين فى القصة - واحد للاضطهاد والثانى للخروج - كما تنازلوا كذلك عن فترة التيه، وقالوا: إن رمسيس الثانى، والد مرنبتاح، هو فرعون الاضطهاد والخروج معا.

ومع أن رمسيس الثانى - ثالث ملوك الأسرة التاسعة عشرة الذى حكم مصر ٦٧ عاما منذ ١٢٩٠ ق. م - كان قد أصبح فى حوالى الخامسة والتسعين من عمره عند نهاية حكمه، ولا يمكن تصور كيف استطاع هذا الملك وهو فى هذه السن الطاعنة أن يمتطى عجلته الحربية ويقود جيشه فى مطاردة بنى إسرائيل، إلا أن هذا الاختيار هو الذى لا يزال يصر عليه الباحثون - بمن فيهم المصريون - منذ بداية هذا القرن، التزاما بالتواريخ التى جاءت بالتوراة. ولم يعد هذا الموقف مقبولا من

(*) كذلك تتكلم الرواية القرآنية عن التيه، وحددته بأربعين عامًا.

جانب علماء المصريات، خصوصا الآن بعد أن اعترف علماء التوراة أنفسهم بأن ٤٣٠ سنة التى وردت فى سفر الخروج، لا يجب اعتبارها حرفيا هى مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر. بالإضافة لأنه هناك رواية أخرى فى التوراة نفسها تحدد مدة بقاء بنى يعقوب فى مصر، بفترة حياة أربعة أجيال فقط. فقد جاء فى سفر التكوين أن الرب قد تحدث إلى إبراهيم عليه السلام، قائلا: «اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم... وفى الجيل الرابع يرجعون إلى هاهنا (أرض كنعان)» الأصحاح الخامس عشر: ١٣ - ١٦.

أربعة أجيال = ٤٠٠ سنة؟!

وبالرغم من أنه ليس من المعقول أن تكون الفترة التى تمثل أربعة أجيال، هى نفسها تزيد على أربعة قرون، إلا أن الكتبة الذين قاموا بنسخ وإعداد الكتب التوراتية وقعوا فى هذا الخطأ، فهم إذ جمعوا مجمل سنى الأربعة أجيال ما بين يعقوب وموسى - بحسب ما جاء فى التوراة - واعتبروا هذا المجموع ممثلا لمدة بقاء إسرائيل فى مصر. وفى البداية قام كتبة سفر الخروج بجمع أعمار الأجيال الأربعة ليعقوب التى عاشت فى مصر:

لاوى	١٣٧	
قهات	١٣٣	
عمرام	١٣٧	(تزوج عمته حفيدة يعقوب - مثلما كانت ابنة يوسف من زوجته المصرية حفيدة ليعقوب - لينجب موسى).
موسى	١٢٠	
المجموع	٥٢٧	

ثـم طرحوا المدة التى قضاها لاوى فى كنعان قبل الحضور إلى مصر وهى ٥٧ سنة، وكذلك المدة التى عاشها موسى فى التيه بعد الخروج وهى ٤٠ سنة من ٥٢٧ فكانت النتيجة ٤٣٠ . ويتضح من هذا أن الرقم ٤٣٠ ناتج عن جمع أعمار سلالة يعقوب الأربعة التى عاشت فى مصر (لاوى + ابنه قهات + ابنه عمرام + ابنه موسى) وليس من المعقول أن نتصور أن كل جيل لم ينجب ابنه البكر إلا يوم وفاته بعد أن كان قد تجاوز المائة من العمر. ولهذا أصبح علماء الكتاب المقدس الآن، يوافقون على أن الرقم ٤٣٠ لا يمثل مدة بقاء بنى إسرائيل فى مصر. ولما كان الزواج يتم فى مرحلة مبكرة فى الأزمنة القديمة ـ وكان أمنحتب الثالث فى الثانية عشرة عند زواجه ـ بينما اعتبر بنو إسرائيل الرابعة عشرة هى سن البلوغ، أصبح فى إمكاننا البحث عن فرعون الخروج فى مدة تتراوح حول مائة عام من تاريخ وصول أبناء يعقوب إلى مصر. كما أصبح من الممكن أن يكون تاريخ ميلاد موسى هو نفس تاريخ ميلاد إخناتون، فى العام ١٢ لحكم أمنحتب الثالث. ولما كان الدليل الأثرى الوحيد على محاولة قامت بها بعض القبائل البدوية للخروج من سيناء إلى كنعان، قد تمت عند نهاية حكم رمسيس الأول، فقد اعتبرت أنا أن هذا الملك هو فرعون الخروج. فهناك نقوش فوق جدران المعبد الذى أقامه سيتى الأول بمعبد الكرنك تحكى قصة قبائل شاسو البدوية ـ والتى تعرف باسم مدين فى القرآن والتوراة ـ بمحاولة الخروج إلى غزة، فى ذات الوقت الذى مات فيه رمسيس الأول. وفى هذه الحالة يكون موسى قد بلغ الستين من عمره

عند نهاية حكم رمسيس الأول عام ١٣٣٣ قبل الميلاد، لو صح ميلاده في العام ١٢ لأمنحتب الثالث.

مولد موسى

يقول «سفر الخروج» ـ وهو ثاني كتب التوراة الخمس: إن عمرام (عمران) بن قهات بن لاوي بن يعقوب، تزوج عمته يوكابد «فحبلت المرأة وولدت ابنا، ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر، ولما لم يمكنها أن تخبئه أكثر من ذلك، أخذت له سفطا من البردي وطلته بالحمر (القطران) والزفت، ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته (مريم) من بعيد لتعرف ماذا يفعل به. فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل ... فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته، ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي، فرقت له وقالت: هذا من أولاد العبرانيين، فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد؟ فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي، فذهبت الفتاة ودعت أم الولد، فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطيك أجرك، فأخذت المرأة الولد وأرضعته، ولما كبر جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا، ودعت اسمه موسى وقالت: إني انتشلته من الماء».

وبخلاف أن المرأة التي تبنت موسى ـ بحسب القصة التوراتية ـ كانت هي ابنة الفرعون وليست امرأته ـ كما في القصة القرآنية ـ كما أنه يقال بأن الأم ألقت موسى «في النهر» وليس «في اليم»، وبالرغم من أن الخلاف بين القصتين يبدو بسيطا للوهلة الأولى، إلا أنه عند

تمحيصه يتضح أنه يؤدى إلى تغيير جوهرى فى المعنى، يفسر لنا ما لاحظه فرويد. ونحن نعرف أن القصة التوراتية - بشكلها الحالى - لم تتم كتابتها إلا بعد بضعة قرون من موت موسى، فى خلال القرن السادس ق. م. بل وحدثت بعد ذلك تعديلات أخرى عليها خلال القرن الثالث قبل الميلاد، لذلك فمن الضرورى لنا التعرف على تلك الاختلافات، نظرا لانعكاس ذلك على تفسيرنا للمصادر التاريخية، ولسوف نستعرض أولا سيناريو الأحداث كما ورد فى سفر الخروج:

- أم موسى تخبئه ثلاثة أشهر بعد ولادته.
- أم موسى تضعه فى الماء.
- أخت موسى تقف بعيدا لتراقبه أثناء وجوده بالماء.
- ابنة الفرعون تجد الطفل فى الماء وتأخذه.
- أخت موسى تتقدم وتعرض على ابنة فرعون أن تأتى لها بمرضعة.
- أخت موسى تستدعى أم الولد لمقابلة ابنة الفرعون.
- ابنة الفرعون تطلب من المرأة العبرانية إرضاع الطفل مقابل أجر.
- المرأة العبرانية تأتى بالولد بعد انتهاء فترة رضاعته إلى ابنة الفرعون ليصير ابنا لها.
- ابنة الفرعون تسمى الولد «موسى».
- موسى يظل مع ابنة الفرعون حتى يكبر ويخرج ليقتل المصرى.

هذه هى خطوات القصة، وبنفس الترتيب، كما وردت فى سفر الخروج.

وعندما ننتقل إلى الرواية القرآنية، نجد أن القصة كما وردت فى سورة «القصص»، تختلف اختلافا جوهريا عن هذا السيناريو، وكانت خطواتها كما يلى:

- أم موسى ترضعه.
- أم موسى تلقيه فى اليم.
- اليم يلقيه بالساحل (وردت فى سورة طه).
- آل فرعون يجدون الطفل ويأخذونه.
- امرأة فرعون تتدخل لدى فرعون لمنعهم من قتل الطفل وتقول لفرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾.
- امرأة فرعون تعرب عن رغبتها فى تبنى الطفل.
- أم موسى تصبح فى قلق وتكاد تكشف عن مشاعرها.
- أم موسى تطلب من أخته أن تتبعه.
- أخت موسى تراقب آل فرعون ومعهم الطفل، دون أن يشعروا بها.
- الطفل يرفض المراضع.
- أخت موسى تتقدم إلى آل فرعون وتعرض عليهم، أن تدلهم على أهل قوم يكفلونه.
- موسى يعود إلى أمه.
- موسى الذى مازال يعيش فى القصر، يبلغ أشده ويقتل رجلا من عدوه.

وعند المقارنة بين الخطوات التى تضمنتها القصة التوراتية مع تلك التى وردت فى القصة القرآنية، يتضح لنا الآتى :

- هناك اتفاق بين القصتين فيما يتعلق بالخطوتين الأولتين؛ أم موسى تحتفظ به فترة قصيرة بعد ولادته ثم تتركه فى الماء.

- يوجد كذلك اتفاق فى المرحلة الأخيرة، حيث يظل موسى فى القصر الملكى حتى يبلغ أشده ويخرج ليقتل شخصا، ومع أن التوراة تقول إن القتيل كان مصريا إلا أن القرآن لم يحدد جنسية القتيل، واكتفى بالقول إنه كان من خصوم موسى، ونحن نعرف أنه كان هناك مصريون من بين شيعة موسى وكان من بنى إسرائيل من يتشيع لفرعون.

- أما الخلاف الجوهرى فهو فى تحديد المكان الذى وجدت فيه أم موسى وأخته، فى كل مرحله. فبينما توحى قصة التوراة بأن أم موسى كانت خارج القصر عندما وضعت الطفل فى الماء، وأن أخته راقبته أثناء وجوده فى الماء حتى عثرت عليه الأميرة، فإن الرواية القرآنية فيها : ﴿ وَقَالَتْ ﴾ (أم موسى) ﴿ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (الآية ١١ : سورة القصص). وحتى ندرك هذا الفرق علينا أن نستعرض سيناريو الأحداث كما وردت فى القصة القرآنية :

الطفل فى الماء - يلقيه الماء بالساحل - يأخذه آل فرعون - تحاول الملكة إنقاذ حياته ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الآية ٩ : سورة القصص) - تطلب أمه من أخته أن تتبعه - تتقدم أخته إلى آل فرعون عارضة مساعدتها.

فالذى يعثر على الطفل هنا ليس الأميرة، وإنما آل فرعون، كما أن أخته لا تراقبه إلا بعد عثور آل فرعون عليه، أى بعد أن صار داخل القصر. وأم موسى نفسها - التى كادت تظهر ما تخبئه بنفسها - هى التى طلبت من أخته أن تتبعه، وكان طلبها هذا بعد أن تم التقاطه، أى أنه كان فى داخل القصر حينذاك. والسؤال الذى أصبح يطرح نفسه علينا الآن هو: هل كانت أم موسى نفسها داخل القصر حين ألقته فى الماء، لتبعده خارج القصر حتى يلتقطه العبرانيون الذين يعيشون فى الطرف الآخر من البحيرة؟

فنحن لا نفهم كيف تحاول المرأة إنقاذ ابنها من خطر فرعون بأن تأتى وتضعه فى الماء المقابل للقصر، حيث ينتشر جنود فرعون وحراسه، ومن المفهوم فى هذه الحالة، أن تفعل العكس وتحاول إبعاده عن القصر وعن الجنود. ومما يرجح حمل القصة القرآنية على أنها لا تنفى ميلاد موسى داخل القصر، ما ورد على لسان فرعون فى سورة الشعراء مخاطبا موسى:

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

ففرعون هنا يستخدم فعل الولادة، وليس فعل الرضاعة.

قال القرطبى فى تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»: وكانت آسية آمنت بموسى، وقيل هى عمة موسى آمنت به - الجزء ١٨ المجلد ٩ صفحة ١٩٣ طبعة دار الحديث.

وقال ابن كثير فى قصص الأنبياء: ذكر المفسرون أن الجوارى التقطنه من البحر فى تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، وقيل إنها من

سبط موسى. وقيل بل كانت عمته. حكاه السهيلى، فالله أعلم.
قصص الأنبياء صفحة ٣٠٨ طبعة دار الحياة بيروت.

* * *

وهذا هو الموضوع الذى أثاره سيجموند فرويد عندما حاول قبيل الحرب العالمية الثانية، التدليل على أن موسى كان مصريا. فقد لاحظ وجود تشابه بين قصة ميلاد موسى وميلاد عدد من العظماء فى العالم القديم، إلا أن قصة موسى تضمنت خروجا على سياق الرواية فى نقطة هامة. فبينما الطفل فى جميع الحالات يهرب من القصر الملكى لتقوم عائلة فقيرة بتربيته، فإنه فى هذه الحالة يهرب من عائلة فقيرة لتربيه العائلة المالكة داخل القصر الملكى. كما جادل كتاب فرويد الأخير - موسى والتوحيد - المنشور عام ١٩٣٩ أن موسى كان أحد المسئولين فى بلاط الفرعون إخناتون، وكان يسمى تحتمس، كان نصيرا للديانة الآتونية. وتقول نظرية فرويد إنه بعد موت الملك اختار تحتمس القبيلة العبرانية التى كانت تعيش شرقى الدلتا لتصبح هى قومه المختارين الذين أخذهم إلى خارج مصر فى وقت الخروج، ونقل إليهم عقائد ديانة إخناتون التوحيدية. وبدلا من دراسة كتاب «موسى والتوحيد» انزعج بعض المثقفين المصريين عند صدوره، ونشرت جريدة الأهرام تعليقا للدكتور هلال فارحى فى ٢٠ مايو ١٩٣٩ يعترض على ما ذهب إليه فرويد.

ولم يكن المثقفون المصريون هم الوحيدين الذين أزعجهم كتاب فرويد، فلقد زاره فى منزله بحى هامستيد بلندن، حاييم وايزمان - رئيس الحركة الصهيونية - وطلب منه عدم نشر هذا الكتاب، وحذره

مما يمكن أن يحدث له لو أنه قام بنشره لأن ميلاد موسى من أم مصرية يجعل منه غير يهودى طبقًا لشروط يهود اليوم! إلا أن فرويد صمم على نشر الكتاب وقال لأصدقائه إنه أفضل عمل ينهى به حياته(*) .

(*) لم يمت سيجموند فرويد ميتة طبيعية، وإنما مات مقتولا بسبب إصراره على نشر كتاب «موسى والتوحيد». فبعد هجرته من ڤيينا إلى لندن عام ١٩٣٨، زاره حاييم وايزمان رئيس الحركة الصهيونية عندما علم برغبته فى نشر كتاب موسى. وطلب وايزمان من فرويد عدم نشر كتابه. ويبدو أن وايزمان ـ الذى اجتمع مع فرويد منفردا ـ قد هدده بشكل ما، إذ خرج فرويد من الاجتماع وهو يقول: إن كتاب موسى أفضل عمل يصلح لأن ينهى به حياته.

كان فرويد مدمنا لتدخين السيجار الذى لا يكاد يفارق فمه فى أى وقت من النهار. وأدى هذا إلى حدوث نوع من الالتهابات وأورام اللثة فى الجانب الأيمن من الفم، وبعد وصوله لندن، أصر طبيبه الخاص ماكس شور ـ اليهودى الذى هاجر معه من ڤيينا ـ على أن فرويد عنده ورم سرطانى خبيث فى الفم. ومن بين العديد من الأطباء الذين عالجوا فرويد فى ذلك الوقت، كان شور هو الوحيد الذى أصر على وجود ورم خبيث فى الفم.

وصمم ماكس شور على إجراء عملية جراحية لفرويد يتم فيها كسر جزء من عظام الفك الأيمن، لتحليلها معمليًا للتأكد من وجود السرطان. ولما رفض الجراحون البريطانيون القيام بهذه العملية، استدعى شور جراح من ڤيينا يدعى بليشر لإجرائها، فقام بقطع الشفة والأنف حتى يتمكن من كسر عظمة الفك الأيمن. وعند تحليل الجزء المكسور لم يثبت وجود السرطان، إلا أن فرويد صار يعانى منذ ذلك الوقت من آلام مستمرة مبرحة. فلم يعد يتمكن من تناول الطعام والشراب، أو حتى من الكلام.

ورغبة فى تخليصه من آلامه ـ كما قال ماكس شور ـ أعطاه الطبيب جرعة اثنين ملليجرام من المورفين، فراح فى نوم عميق. فقام بتكرار الجرعة مرة ثانية، فراح فرويد فى إغماء ـ كوما ـ لمدة يوم ونصف، مات بعده فى ٢٣ سبتمبر ١٩٣٩.

إلا أن أشد معارضى فرويد كان إيمانويل فيليكوفسكى ، الذى كان مثله من علماء النفس اليهود ، هاجر من روسيا إلى الولايات المتحدة . قرأ فيليكوفسكى كتاب «موسى والتوحيد» عام ١٩٤٠ ، ومنذ ذلك الوقت كرس حياته لإثبات خطأ ما توصل إليه فرويد من نتائج ، ووجد أن الوسيلة الوحيدة التى تمكنه من إلغاء العلاقة بين موسى وإخناتون هى إثبات أن العصر الذى عاش فيه رسول بنى إسرائيل يسبق عصر الملك المصرى بفترة طويلة . فى هذه الحالة يكون قد ضرب عصفورين بحجر ، فهو قد ألغى احتمال أن يكون موسى مصريا ، وفى الوقت نفسه بين أن إخناتون عرف التوحيد عن طريق موسى الذى سبقه فى التاريخ . وبعد الرجوع إلى بعض كتب التاريخ المصرى تبين لفيليكوفسكى أنه لا يستطيع الاعتماد على ما جاء بالمصادر المصرية - فهى لاتتفق مع اعتقاداته - وإنما عليه أن يجد مصدرا آخر . ووجد عالم النفس الروسى ما كان يبحث عنه فى بعض الروايات القديمة التى تتحدث عن كوارث چيولوچية وانفجارات بركانية ، ونشر فيليكوفسكى هذه الروايات فى أول كتاب له عام ١٩٥٠ بعنوان «عوالم تتصادم» ، ثم نشر بعد ذلك بعامين كتابه الثانى «عصور فى فوضى» محاولا العثور على أدلة چيولوچية لإثبات حدوث البراكين خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وهى الفترة التى يعتقد أن بنى إسرائيل خرجوا فيها من مصر إلى كنعان .

ولا يلجأ فيليكوفسكى إلى محاولة تحديد عصر الخروج عن طريق العثور على نص تاريخى مكتوب أو دليل أثرى يؤكد هذه الحادثة ،

فالتاريخ عنده غير صحيح ؛ بمعنى أن المؤرخين قد أعطوا تواريخ خاطئة للأحداث، فلم يعد من الممكن العثور على الأدلة فى مواضعها. وإنما هو يستند إلى أن قصة سفر الخروج تقول بأن مصر كان بها كوارث طبيعية فى الوقت الذى خرج فيه بنو إسرائيل منها، فهناك الضفادع والذباب والبعوض والظلام التى ورد ذكرها على أنها من أنواع العقاب الذى حل بالمصريين لرفضهم السماح لبنى إسرائيل بمغادرة مصر. وجاء بالإصحاح التاسع عشر من سفر الخروج أنه فى وقت الخروج «كان جبل سيناء كله يدخن... وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً» ـ ١٨ . كما أنه يكمل صورة الكارثة من بعض النصوص التى اختارها من بين المزامير التوراتية، فقد جاء بالمزمور الثامن عشر: «فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال، ارتعدت وارتجت... صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت... جمر اشتعلت منه... فظهرت أعماق المياه وانكشفت أسس المسكونة». وبالرغم من أن هذا المزمور منسوب إلى داود، إلا أن الكاتب نسبه إلى عصر موسى ووقت الخروج بالتحديد.

بناء على هذه الروايات وأمثالها من الروايات القديمة، قال إيمانيويل فيليكوفسكى بأن المؤرخين ورجال الآثار قد أخطئوا الحساب، ويكون خروج أبناء إسرائيل من مصر فى الوقت نفسه الذى جاء فيه الهكسوس إليها، والذى عنده ليس القرن ١٧ قبل الميلاد، وإنما قبل ذلك بقرنين. ويكون بقاء الهكسوس في مصر ـ ليس ١٠٨ أعوام كما يقول التاريخ ـ وإنما ٤٠٠ عام. وبعد إعادة كتابة التاريخ

بهذه الطريقة، يصبح موسى سابقا على إخناتون وتصبح الأدلة الأثرية التى تشير إلى تكوين الإمبراطورية المصرية هى نفسها التى تؤيد الكتابات التوراتية باحتلال بنى إسرائيل لكنعان وصدق رواية يشوع ومملكة داود وسليمان.

التوحيد

وهكذا نجد أن إخناتون - وكذلك موسى - ولدا فى العام ١٢ لحكم أمنحتب الثالث، فى المقر الملكى بمدينة زارو التى أعطاها الملك لزوجته طاى فى وسط المنطقة التى عاش بها العبرانيون، والتى تسميها التوراة جاسان. وخافت الملكة طاى على ابنها الثانى - الذى أخذ اسم أمنحتب مثل والده - أن يقتله الكهنة مثلما فعلوا بابنها الأول، فلم تسمح له طوال طفولته أن يذهب إلى مقر الأسرة فى منف. بل أرسلته ليتم تعليمه عند أخيها الأكبر «آنن» فى مدينة عين شمس، على عكس التقاليد التى كانت تقضى بأن يتم تعليم الأمير فى منف مع أولاد النبلاء. وأول ما نسمع عن ابن طاى هو عند وصوله إلى العاصمة طيبة، عندما بلغ ١٦ عاما، حيث خصص له أبوه ڤيلا داخل القصر الكبير الذى بناه فى ملقاتا على الضفة الغربية للأقصر.

وفى نفس تلك السنة التى وصل فيها إخناتون إلى طيبة - عام ٢٨ من حكم أمنحتب الثالث - أشرك الملك ابنه معه فى الحكم على أنه أمنحتب الرابع. فقد كان الملك يدرك جيدا أنه بعد موته، لن يسمح الكهنة لابنه باعتلاء العرش. ومع أن الملك فى مصر القديمة كان مطلق السلطة - حيث كان الاعتقاد السائد هو أنه ابن للمعبود آمون - إلا أنه

كان مقيدا فى تصرفاته بالتقاليد القديمة التى كانت تعتبر كد ستور غير مكتوب. كان المصريون القدماء يعتقدون بالميلاد المقدس للفراعين. ذلك أنه قبل دخول الملك على زوجته، كان يذهب أولا إلى المعبد حيث يتم تطهيره بالماء المقدس، ثم دهان جسمه بالزيوت والعطور، يقوم الكهنة فى أثناء ذلك بترتيل بعض الأناشيد، الهدف منها دعوة روح آمون للحلول فى جسد الفرعون. وعندما يتم ذلك الحلول، يذهب الملك ليدخل على زوجته. وعلى ذلك فهم كانوا يعتقدون أن الابن الذى يولد من هذه العلاقة يصبح ابنا لآمون. وبحسب الاعتقادات المصرية، فإن آمون يرفض الحلول فى جسد الملك لو أن زوجته لم تكن هى الوريثة؛ الابنة الكبرى للملك السابق. وعلى ذلك فإن ابن طاى لا يعتبرابنا لآمون، ولا يحق له الجلوس على العرش. ولو أنه أصبح ملكا فمعنى ذلك هو القضاء على سلالة الأسرة الحاكمة، حيث سيقوم هو بتكوين أسرة جديدة. ولكن أمنحتب الثالث تجاهل كل هذه التحذيرات وأشرك معه ابن طاى فى الحكم.

وكان أول ما فعله الملك الشاب هو أن قام ببناء معبد ملحق بالكرنك لإله جديد رمز له بأشعة النور التى تمسك بمفتاح الحياة، ودعا اسمه «آتون». ولم يكن هذا فى حد ذاته ليثير غضب الكهنة، فقد كان المصريون معتادين على تعدد المعبودات. ولكنه اعتبر أن آتون ـ الذى ليس له صورة أو تمثال ـ هو إله واحد لكل البشر، كما حرم دخول معبده إلا لمن ترك المعبودات الأخرى. وثارت ثائرة الكهنة المصريين ولم يتمكنوا من إخفاء مشاعرهم، فبحسب ما جاء فى كتابات الملك الشاب، فإن البعض منهم وجه عبارات التحدى للملك الكبير نفسه.

وتحت ضغط أبويه، ترك إخناتون العاصمة واختار موقعا بمحافظة المنيا قبالة مدينة ملوى - يعرف الآن باسم تل العمارنة - وبنى فيه مدينة جديدة ليعيش بها هو ومن تبعوه، بعد أن غير اسمه إلى إخناتون. وطالما ظل أمنحتب الثالث على قيد الحياة، كانت سلطة إخناتون محددة بحدود تل العمارنة لا يتعداها. ولكن عند موت أبيه - فى السنة الثانية عشرة من الحكم المشترك - وجد إخناتون نفسه الحاكم الأوحد لكل أرض مصر، وهنا بدأت المشكلة.

ونحن لا نعرف الكثير عن اعتقادات بنى إسرائيل عندما كانوا يعيشون فى مصر، وكل ما نعرفه هو أن إبراهيم عليه السلام هجر أرض آبائه لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، وتبع إسحاق ويعقوب ملة إبراهيم. ولكننا نعرف أيضا بحسب ما جاء بالقصة التوراتية بأن آل ناحور شقيق إبراهيم الذى تزوج منهم كل من إسحاق ويعقوب، كانوا يعبدون الأصنام، ومع أن كتبة اليهود فيما بعد حاولوا تفسير خلافاتهم مع المصريين على أنها كانت تقوم على أساس من الصراع الدينى، إلا أن هذه المصادر نفسها لم تستطع إنكار أن المشاكل التى واجهها موسى عند دعوته بنى إسرائيل إلى عقيدة التوحيد، كانت تفوق بكثير ما لاقاه من المصريين. وكل ما نعرفه عن عقيدة يعقوب وأولاده أنه كان لهم إله واحد يعبدونه، إلا قومهم دأبوا على التطلع للأصنام وعبادتها. وكان أول من أعلن أن الإله واحد لكل البشر فى المصادر التاريخية هو إخناتون. بل إن ما نراه من تعاليم موسوية لطريقة بناء المعبد والطهارة وتنظيم طائفة الكهنة وطقوس العبادة، بما فى ذلك تابوت العهد الذى وضع به

نسخة من الوصايا العشر، نجدها منقولة حرفيا من النظام المصرى القديم. والوصايا العشر التى جاءت فى التوراة على شكل الأمر «لا تســـرق... لا تقتل»، نجدها فى كتاب الموتى على شكل النفى «لم أسرق... لم أقتل».

ألغى إخناتون الاعتقاد الدينى السابق، سواء فيما يتعلق بتعدد الآلهة أو فيما يختص بتجسيد الإله فى شكل مرئى، إلا أنه لم يلغ طقوس العبادة المصرية القديمة، بل استخدمها فى النظام الدينى الجديد الذى أقامه. وفى هذا الخصوص يقول سير آلان جاردنر فى كتابه عن «مصر الفراعنة»: «يظهر مدى اعتماد (العبادة الآتونية) فى شكلها الأول على عبادة عين شمس القديمة - ليس فقط من استخدامها لاسم رع هارختى - وإنما كذلك لذكرها لمسلته الكبيرة فى الكرنك (التى أصبحت بمثابة الحجر المقدس لدى إخناتون)... وكذلك بالنسبة إلى رئيس كهنة آتون فى عام ١٦ ميرى رع، الذى لا يزال يحمل لقب (كاهن) عين شمس القديم أعظم العرافين. وتتبين بصورة مستمرة صعوبة الهرب تماما من التقاليد السابقة» - (ص ٢١٦). ويمضى جاردنر فى التعليق على اختفاء أوزوريس من العبادة الآتونية، ومع هذا فإن: «طقوس الدفن لا تزال تحتفظ بالكثير من أشكالها القديمة، إلا أن هذه تم تجريدها الآن من معناها السابق» - (ص ٢٢٩).

فقد استمر إخناتون فى استخدام نفس طقوس الدفن الأوزوريسية من حيث بناء المقبرة وتحنيط الجسد ووضع تماثيل الشبه، وما إلى ذلك وإن كان قد قطع كل علاقة لهذه الطقوس بأوزوريس. كما جرى بناء معبد آتون على غرار معبد عين شمس، واستمر نظام الكهنة القديم

وكذلك طقوس العبادة دون تغيير ، وإن صار لها دلالة مختلفة . بل إننا نجد غالبية هذه الطقوس قائمة حتى يومنا هذا داخل الكنائس .

انقلاب عسكرى

كان مفهوم الإله الذى لا يستطيع الناس رؤية تجسيد مادى له ، جديدا على عامة المصريين فى ذلك الوقت ، كما أن الاختلاف بين الشعوب - بل بين المدن والقرى - فى ذلك الوقت ، كان يفسر على أساس من اختلاف المعبودات لدى الأقوام المختلفة ، فكيف بإله واحد - ليس لكل مصر فحسب - بل لأرض الشام وإفريقيا كذلك؟ لهذا فلم يتبع إخناتون إلا عدد من مثقفى زمانه . عين إخناتون خاله «آى» - ابن يويا - مشرفا على الخيالة وقائدا للحرس الملكى ، فى المكان الذى كان يشغله والده . كما أنشأ فرقة عسكرية من بين أبناء الجاليات الأجنبية فى مصر لحراسته ، وهذا يتضح من رسومات مقابر النبلاء فى تل العمارنة . إلا أن الفجوة ظلت كبيرة بين ما ينادى به إخناتون وما يريده الكهنة والحاشية .

بل إن الأمور داخل الجيش تطورت بشكل أصبح يشكل خطرا على إخناتون نفسه . وبدأت المؤامرات تحاك داخل الجيش - لا شك بتشجيع من الكهنة - للإطاحة بإخناتون ونظامه .

ازدادت المؤامرات ضد إخناتون ، نصحه آى بالتنازل عن العرش لتوت عنخ آتون ، وخرج هو من مدينة العمارنة ليعيش فى المنفى . فليس هناك دليل واحد يشير إلى موت إخناتون عند نهاية حكمه . بينما توجد العديد من الأدلة التى تشير إلى أنه كان لا يزال حيا بعد نهاية حكمه . فهو لم يدفن فى المقبرة التى أعدها لنفسه وسط الصخور المحيطة بمدينة العمارنة ، بل إن هناك بعضا من أتباعه ظلوا يذكرون

تاريخ كتاباتهم وينسبونها إلى عصره، كأنه لا يزال على العرش. إلا أن اسمه منع تماما من المصادر الرسمية، وكان عند الضرورة يشار إليه بتعبير «با خرو با أخيتاتون»، ومعناها «ساقط أخيتاتون (العمارنة)».
ولا شك أن هذه هى أول حالة نعرفها فى التاريخ عن ملك يسقط عن العرش. ومع سقوطه فقد ألقابه وأسماءه الملكية. فلا يستطع أحد أن يشير إليه باسمه الذى كان يعرف به أثناء وجوده على العرش، أى أنه صار لا اسم له. وتوجد دلالات على أن مكان المنفى الذى عاش فيه إخناتون كان عند معبد «سرابيط الخادم» فى سيناء، وهى تقع على بُعد بضعة كيلومترات إلى الشمال الغربى من دير سانت كاترين وجبل موسى. فقد عثر الأثرى البريطانى فليندرز بيترى هناك على تمثال للملكة طاى والدة إخناتون كما وجدت دلالات على استمرار عبادة آتون فى هذه المنطقة بعد أن أصبحت ممنوعة فى وادى النيل.

وهنا أيضا نجد أن الاختلاف بين الرواية القرآنية والقصة التوراتية له مغزاه فى فهم الأحداث التاريخية وراء هذه القصص. إذ يصور سفر الخروج ذهاب موسى إلى سيناء على أنه كان خوفا من فرعون، الذى أمر بقتله بعد أن تدخل موسى لصالح العبرانى ضد المصرى، لكن سورة القصص القرآنية تحكى هذا الحدث بطريقة توحى بوجود صراع سياسى مع بعض المتآمرين ضده:

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾(*) (الآية: ٢٠).

(*) وهل يقتل فرعون أحدًا من ذويه أو من أصحاب الجاه لأنه قتل فردًا من الشعب؟ بل إن الملأ يأتمرون، أى: يدبرون مؤامرة لقتل موسى.

الفصل الخامس

أسطورة غزو بني إسرائيل لكنعان

□ فبحسب التلمود، أُعدم المسيح بحكم من محكمة حاخامية بتهمة عبادته للأصنام وتحريض اليهود الآخرين على عبادة الأصنام. □

«الديانة اليهودية وتاريخ اليهود - إسرائيل شاحاك،
تقديم إداورد سعيد، صفحة ١٦٠»

ظهرت فكرة مقتل شخصية قيادية من بنى إسرائيل أثناء وجود موسى فى سيناء، فى ألمانيا فى الجزء الأول من القرن العشرين. فلقد أدرك عالم الدراسات التوراتية ارنست سيلين وجود دلائل فى سفر العدد تشير إلى أن فينيحاس الكاهن قتل أحد زعماء بنى إسرائيل - وقتل معه زوجته، لأنه تزوج من أجنبية، حسب الرواية التوراتية - بينما هو داخل قدس الأقداس بمعبد الخيمة، الذى بناه موسى عند جبل سيناء، فى نفس الموقع الذى بنى عليه دير سانت كاترين فيما بعد. واعتمد سيجموند فرويد على هذا التفسير فقال بأن بنى إسرائيل قتلوا نبيهم موسى، لأنه كان صارما فى محاولته فرض ديانته التوحيدية عليهم. إلا أننى اختلفت مع فرويد، وذهبت فى كتابى «بيت المسيح» الذى صدر فى لندن بالإنجليزية عام ١٩٩٣، إلى أن الضحية الذى قتل كان هو يشوع بن نون الذى عينه موسى ليكون خليفته. إذ تبين لى أن كتبة التوراة - محاولة منهم لإخفاء مقتل يشوع - ألفوا سفرا كاملا باسم يشوع، وقد أجمع رجال الدراسات التوراتية ورجال الآثار على عدم وجود أى جزء تاريخى صحيح به. بل إن كتبة سفر يشوع جعلوه يقود قبائل بنى إسرائيل فى هجوم شامل، لتحطيم المدن والاستيلاء على أرض كنعان وتوزيعها على القبائل بعد قتل كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ، حتى

الحيوانات ، وذلك ـ حسب الرواية التوراتية ـ بأوامر إلهية(*) . وظلت أسطورة غزو بنى إسرائيل لأرض كنعان واستيلائهم عليها بعد هزيمتهم لممالك المدن القديمة ، حقيقة لا تقبل الجدل ، استنادا إلى ما جاء بسفر يشوع التوراتى ، إلى أن ظهر علم التاريخ الحديث الذى اعتمد على نتائج أعمال الحفر فى معرفة أحداث الماضى .

تقول القصة التوراتية إنه بعد موت موسى ونهاية التيه ، قام يشوع ابن نون بقيادة قبائل بنى إسرائيل الاثنتى عشرة ، فى حملة عسكرية استولى فيها على كل أرض كنعان ، ثم قام بتوزيعها على القبائل . وهذه القصة التوراتية هى المصدر الوحيد لهذه الرواية ، فليس لدينا أية إشارة لهذا الحدث فى مصادر التاريخ ، بل إن العكس هو الصحيح حيث هناك العديد من الأدلة التى لا تقبل الشك ، والتى تنكر قيام بنى إسرائيل بغزو أرض كنعان خلال القرن الثالث عشر ق . م . ويشوع هو الشاب الذى اختاره موسى : ليكون خليفته فى قيادة بنى إسرائيل ، إذ : «قال الرب لموسى : خذ يشوع بن نون . . . وضع يدك عليه . وأوقفه قدام العازار الكاهن وقدام كل جماعة بنى إسرائيل . واجعل من هيبتك عليه لكى يسمع له كل جماعة بنى إسرائيل . . . حسب قوله يخرجون وحسب قوله يدخلون . . . ففعل موسى كما أمره الرب» .

(*) جاء فى سفر العدد ـ رابع أسفار التوراة ـ فى الأصحاح الواحد والثلاثين «فأبدى موسى سخطه على قادة الجيش . . وقال لهم : لماذا استحييتم النساء؟ . . فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال واقتلوا أيضا كل امرأة ضاجعت رجلاً» ١٥ ـ ١٧ . وهذا يشرح لنا قتل الأسرى من الجنود المصريين .

ويقول «كتاب يشوع» إنه بعد موت موسى، كان بنو إسرائيل يعسكرون شرقى نهر الأردن فى مواجهة مدينة أريحا، فقام يشوع بقيادتهم فى عبور نهر الأردن غربا، إلى فلسطين. ومنذ اللحظة الأولى نلاحظ الطابع الأسطورى للرواية، فكل الأحداث تتم على شكل معجزات... «مياه الأردن المياه المنحدرة من فوق تنفلق وتقف ندا واحداً، لتسمح لبنى إسرائيل بالعبور».

سفر يشوع هو سادس كتب العهد القديم، الذى يحتوى على ٣٩ سفر أو كتاب، أما التوراة فهى الكتب الخمس الأولى فقط من العهد القديم، والمنسوبة إلى موسى. وتحتوى الفصول الاثنى عشر الأولى من كتاب يشوع، على تفاصيل قصة استيلاء بنى إسرائيل على أرض الميعاد، وبعد ذلك يأتى قسم يتضمن كيفية توزيع أرض كنعان على القبائل الإسرائيلية، ثم يعطيهم يشوع وصاياه قبل أن يموت. وبحسب رواية هذا الكتاب، والتى تشير إلى أحداث المفروض أنها تمت مباشرة بعد خروج بنى إسرائيل من مصر فى خلال القرن الثالث عشر ق. م.، بدأ أبناء إسرائيل بحصار مدينة أريحا:

«فبكر يشوع فى الغد، وحمل الكهنة تابوت الرب والسبعة الكهنة الحاملون أبواق الهتاف السبعة أمام تابوت الرب سائرون سيرا وضاربون بالأبواق... وداروا بالمدينة فى اليوم الثانى مرة واحدة ثم رجعوا إلى المحلة. هكذا فعلوا ستة أيام. وكان فى اليوم السابع أنهم بكروا عند طلوع الفجر وداروا دائرة المدينة على هذا المنوال سبع

مـــرات. . . وكان فى المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة فتكون المدنية وكل ما فيها محرما للرب (قتلى باسم الرب) راحاب الزانية فقط تحيا. . . فهتف الشعب وضربوا بالأبواق. وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافا عظيما، فسقط السور فى مكانه وصعد الشعب إلى المدينة. . . **وأخذوا المدينة وحرموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف... وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها»**(*).

وهكذا عن طريق «اللف سبع مرات» والهتاف والزمامير، انهارت حصون أريحا ودخل «الشعب المختار» المدينة، ليحرقها ويقتل كل من فيها. ثم سار بنو إسرائيل إلى مدينة محصنة أخرى اسمها «عاى» كانت تقع على بعد عدة كيلومترات غربى أريحا، وفى هذه المرة قسم يشوع جيشه إلى قسمين. وبينما اختبأ القسم الأول شمالى عاى، تظاهر القسم الثانى بالهزيمة أمام المدينة والانسحاب، فتبعهم ملك عاى وجنوده. وهنا خرج القسم الأول من مخبئه ودخل المدينة المفتوحة واستولى عليها، هكذا بدون قتال أيضا. ولما سمع سكان المنطقة الواقعة غربى أريحا وعاى بما فعله يشوع بالمدن التى استولى عليها، ذهبوا إليه وطلبوا منه أن يعطيهم الأمان، ففعل. وخافت باقى ممالك كنعان أن تلقى نفس المصير على يد يشوع، فتحالف ملوك

(*) تكررت هذه المذابح التى باسم الرب ـ حسب رواية العهد القديم ـ عدة مرات. وهذا يشرح لنا ما حدث فى دير ياسين. . وإلى قانا.

خمس مدن فى وسط فلسطين هم ملوك القدس والجليل واليرموك والدوير والحصى، وخرجوا لملاقاة يشوع.

«فقال الرب ليشوع لا تخفهم لأنى بيدك قد أسلمتهم. لا يقف رجل منهم بوجهك. فأتى إليهم يشوع بغتة... فأزعجهم الرب أمام إسرائيل وضربهم ضربة عظيمة... وبينما هم هاربون من أمام إسرائيل... رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء إلى عزيقة فماتوا. والذين ماتوا بحجارة البرد هم أكثر من الذين قتلهم بنو إسرائيل بالسيف... فوقفت الشمس فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل. ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده... لأن الرب حارب عن إسرائيل».

وتمضى قصة كتاب يشوع لتحكى كيف استمر بنو إسرائيل فى انتصاراتهم حتى تمكنوا من الاستيلاء على المنطقة التى تمتد: «من قادش برنيع إلى غزة»، أى كل وسط وجنوب فلسطين. وعاد يشوع بعد ذلك ليواجه تحالفا آخر فى شمال فلسطين لمجموعة من الملوك كان يتزعمهم ملك إحدى المدن القوية فى ذلك الزمان، وهى «حاصور». واجتمع هؤلاء الملوك الذين «خرجوا هم وكل جيوشهم، ومعهم شعب غفير كالرمل الذى على شاطئ البحر فى الكثرة، بخيل ومركبات كثيرة جداً. فاجتمع جميع هؤلاء الملوك بميعاد وجاءوا ونزلوا معا على مياه ميروم لكى يحاربوا إسرائيل». وفى هذه المرة كذلك:

«قال الرب ليشوع: لا تخفهم لأنى غداً في مثل هذا الوقت أدفعهم جميعا قتلى أمام إسرائيل فتعرقب خيولهم وتحرق مركباتهم بالنار. فجاء يشوع وجمع رجال الحرب معه عليهم عند مياه ميروم

بغتة وسقطوا عليهم. فدفعهم الرب بيد إسرائيل فضربوهم وطردوهم إلى صيدون العظيمة... ثم رجع يشوع فى ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بحد السيف. لأن حاصور كانت قبلا رأس جميع تلك الممالك. **وضربوا كل نفس بحد السيف. حرموهم. ولم يبق نسمة. وأحرق حاصور بالنار».**

وهكذا - وبخلاف مدينة القدس وبعض الممالك التى تقع فى أقصى الشمال - استولى بنو إسرائيل على أرض كنعان؛ ٣١ مملكة وردت أسماؤها فى الفصل الثانى عشر من كتاب يشوع.

وظلت هذه القصة هى المصدر الوحيد المتاح، للطريقة التى دخل بها بنو إسرائيل إلى أرض كنعان، إلى أن جاء عصر النهضة، فبدأ الباحثون يعملون الفكر فى محاولة لإعادة تقييم الروايات القديمة. واستطاع علم التاريخ الحديث أن يعطينا معلومات دقيقة عن أحداث العالم القديم، من المصادر المصرية والبابلية والسورية والكنعانية واليونانية. وأول ما لاحظه الباحثون هو الطبيعة الأسطورية التى يتسم بها وصف المعارك، حيث تقف الشمس استجابة لنداء يشوع، وتنهار الحصون لصراخ بنى إسرائيل، وتنهزم العجلات الحربية أمام جماعات ليس لديها أسلحة تقاتل بها.

ثم إنه بمقارنة ما جاء فى كتاب يشوع مع ما جاء فى «كتاب القضاة» الذى تلاه، يظهر أن بنى إسرائيل لم يبدءوا فى دخول أرض كنعان، إلا بعد أن مات يشوع. وهذا الكتاب يقول بأن بنى إسرائيل - بعد خروجهم من سيناء - ظلوا مدة طويلة يقيمون فى منطقة جبال سعير

جنوبى البحر الميت . وأن دخولهم كنعان لم يكن فى حرب شاملة ضد أهل البلاد ، وإنما فى محاولات فردية قامت بها بعض القبائل للتسلل إلى المناطق غير المأهولة بالسكان أولا . ثم إن مصادر التاريخ المصرى تؤكد أن كنعان كانت تتبع النفوذ المصرى طوال القرن الثالث عشر ق . م . وسارت الجيوش المصرية عبر تلك الممالك فى نفس تلك الفترة ، بقيادتى سيتى الأول ورمسيس الثانى ، ولم تلتق ببنى إسرائيل هناك . بل إن مصر كانت تحتفظ بحاميات عسكرية فى العديد من المناطق التى ورد ذكرها فى سفر يشوع بأرض كنعان ، ولم يرد ذكر وجود ممالك لبنى إسرائيل ضمن النصوص المصرية ، التى تحتوى أسماء جميع ممالك كنعان .

وتوصل علماء الدراسات التوراتية الذين استخدموا قواعد النقد ، إلى أن سفر يشوع لا يعبر عن أية حقيقة تاريخية وإنما قام بصياغته كتبة بنى إسرائيل أثناء سبى بابل ، خلال القرن السادس ق . م . ، مستعملين بعض الروايات القديمة - السابقة على عصر بنى إسرائيل - والتى تتضمن أخبارا تتعلق بحروب ممالك كنعان فيما بينها . ويؤكد هذا طبيعة أسلوب الكتابة المستعملة نفسه ، حيث يحتوى الكتاب على مجموعة من المقتطفات المكتوبة بأساليب مختلفة . **وكان علماء التوراة الألمان هم أول من قال بأن سفر يشوع، يحتوى على قصة أدبية من صنع الخيال وليس له أى قيمة تاريخية.** واستطاع علماء الحفريات فى عصرنا هذا - ليس فقط إثبات كذب أسطورة غزو بنى إسرائيل لأرض كنعان - ولكنهم نفضوا كذلك الغبار عن القصة الحقيقية لتسلل قبائل بنى إسرائيل إلى المناطق المهجورة فى كنعان . وعندما بدأت

معاول الأثريين تشق باطن الأرض فى فلسطين منذ منتصف القرن الماضى، انتظر الباحثون فى لهفة ليروا ماذا ستكشف عنه بقايا الأجداد. كانت مدينة أريحا من أوائل المواقع التى بدأت فيها أعمال الحفر، وكان هدف الباحثين الأوائل هو الحصول على الدليل الأثرى لإثبات صحة ما جاء بالروايات التاريخية لليهود، إلا أن ماتم العثور عليه فى النهاية كان مختلفا تماما، ومؤكدا للشكوك التى سبق أن توصل إليها علماء التوراة الألمان.

ومدينة أريحا قد تكون هى أقدم مدن كنعان إطلاقا، يرجع تاريخها إلى حوالى عشرة آلاف عام مضت، وتقع بقايا المدينة القديمة فى منطقة «تل السلطان» على بعد حوالى كيلومتر ونصف، شمالى غرب المدينة الحديثة، على الطريق الذى يربط نهر الأردن بالقدس، ١٠ كيلومترات شمال البحر الميت. بنيت أريحا فى منطقة خصبة من وادى الأردن، مليئة بالزراعة التى تسقيها «عين السلطان» القريبة من المدينة القديمة، وهى مثل البحر الميت تنخفض بمقدار ٢٥٠ مترا عن مستوى البحر، ولهذا فهى شديدة الحرارة فى الصيف دافئة فى الشتاء. وتبين من الحفريات أن المدينة القديمة - والتى سكنتها قبائل سامية جاءت من الجزيرة العربية - كان لها أسوار عالية يبلغ سمكها حوالى مترين وتحرسها أبراج للمراقبة. ارتفاعها تسعة أمتار، وحتى يومنا هذا، فإن هذه هى أقدم الحصون التى تم العثور عليها فى أى مكان من خلال الكرة الأرضية. وتبين أن هذه الأسوار تحطمت ثم أعيد بناؤها عدة مرات فى الأزمنة القديمة، كان آخرها خلال القرن السادس عشر

ق . م . ، أى قبل ثلاثة قرون من عصر يشوع ، ولم يتم إعادة بنائها بعد ذلك إطلاقا . وأثبتت نتائج أعمال الحفر التى قامت بها الباحثة البريطانية «كاثلين كينيون» فيما بين ١٩٥٢ و ١٩٥٨ ، ليس فقط أن أريحا لم يكن لها أسوار فى أيام يشوع ، ولكنها أظهرت كذلك أن المدينة ذاتها كانت مهجورة لا يسكنها أحد فى ذلك الزمان .

أما «عاى» التى يقول سفر يشوع إنها كانت المدينة الثانية التى تسقط فى يد بنى إسرائيل عند دخولهم أرض الميعاد ، قد أظهرت نتائج الحفريات أنها كانت قد تحطمت ـ هى الأخرى ـ عند بداية العصر البرونزى أحد عشر قرنا قبل يشوع ، ولم يعد سكناها إلا منذ القرن ١٢ ق . م . حينما بدأت قرية صغيرة تنمو فى الموقع . وجاءت النتائج فى كل المواقع الأخرى لتؤكد نفس النتيجة ، أن المدن التى يقول سفر يشوع إنها سقطت أمام غزو بنى إسرائيل ـ والذى يحدد له القرن ١٣ ق . م . ـ كانت كلها إما غير مأهولة بالسكان فى ذلك الوقت ، أو أن تحطيمها لم يتم إلا بعد بقرن من الزمان .

وبالطبع فإن هذه النتيجة لم توافق هوى البعض ، من أولئك الذين اعتمدوا على رواية سفر يشوع للمناداة بمواقف سياسية موجهة . ولهذا انفرد الباحث الإسرائيلى «إيجال يادين» من بين رجال التاريخ القديم ، فى النتيجة التى توصل إليها بخصوص مدينة «حاصور» ، عندما حاول إثبات صحة رواية سفر يشوع . إذ أعلن يادين ـ الذى قام بالإشراف على أعمال الحفر فى «حاصور» ما بين ١٩٥٥ و ١٩٦٨ ـ ليس فقط أنه عثر على ما يثبت أن المدينة قد تم تحطيمها خلال القرن ١٤ ق . م . ، بل أنها تحطمت بالنيران تماما كما يقول سفر يشوع .

كانت حاصور هى كبرى مدن الجليل الأعلى بشمال فلسطين على مقربة من مرتفعات الجولان السورية، تقع على بعد تسعة أميال شمالى بحر الجليل، فى موقع استراتيچى يسيطر على التفرعات الرئيسية لطريق البحر الذى يمتد بحذاء الساحل الفلسطينى، ويتصل بطريق حورس فى شمال سيناء ويربط مصر بسوريا وآسيا الصغرى. وحاصور التى ورد ذكرها فى المصادر المصرية عندما استولى عليها تحتمس الثالث وفى خطابات العمارنة التى كتبها ملكها «عبدى حيرشى» إلى إخناتون، ظلت تحت النفوذ المصرى - على الأقل - حتى عصر رمسيس الثالث فى أوائل القرن ١٢ ق.م.، والاسم الحديث للمنطقة هو «تل القيضة» وهى هضبة مرتفعة على شكل مستطيل يمتد من الجنوب إلى الشمال وينقسم إلى جزأين، الجزء الجنوبى أكثر ارتفاعا يصل إلى حوالى ١١٩ مترا عن سطح البحر على مساحة ١٢٠ ألف متر مربع، وهنا تم بناء المدينة الأولى فى الألف الثالثة قبل الميلاد، ثم اتسعت المدينة بعد ذلك بألف عام على مستوى أقل ارتفاعا، فوق الهضبة الممتدة شمالا فى مساحة نصف مليون متر مربع. وبينما تعرضت المدينة القديمة الأكثر ارتفاعا للدمار، إلا أنه أعيد بناء ما تهدم واستمرت حتى العصر اليونانى، أما المدينة الكبيرة الممتدة على الهضبة فى الشمال، فقد تم تحطيمها فى الوقت نفسه ولكن لم يعد بناؤها بعد ذلك.

والقضية التى تهمنا هنا هى معرفة متى تم تحطيم المدينة وكيف تحطمت؟ ولم يتردد يادين فى الإجابة على هذا السؤال - «تحطمت حاصور على يد يشوع خلال الثلث الثانى من القرن ١٣ ق.م.، وكانت النيران هى وسيلة الدمار». ولكن عندما ننظر إلى الأدلة التى

اعتمد عليها يادين للوصول إلى هذه النتيجة ، نجد أنه لم يعثر على أى دليل حقيقى . فهو عند تحديده لوقت دمار المدينة - لم يعتمد على دليل وجده فى الموقع - وإنما على دليل لم يجده . فلقد عثر على بقايا لنوع من الفخار اليونانى يرجع إلى القرن ١٣ ق . م . ، ولكنه لم يجد أيا من هذا النوع من الفخار بعد ذلك التاريخ . وعلى هذا - بحسب قوله - فإن عدم وجود هذا النوع من الفخار يدل على أن المدينة كانت قد تحطمت .

ولد إيجال يادين فى القدس عام وعد بلفور ١٩١٧ ، وكان منذ الصبا متحمسا للحركة الصهيونية التى أصبحت تنادى بالوطن القومى لليهود فى فلسطين . وسرعان ما انخرط فى صفوف عصابة «الهاجانا» وهو بعد فى السابعة عشرة من عمره . ونظرا لكفاءته فى نشاط العصابة ، أصبح مسئولا عن منطقة القدس ثم ضابطا لعمليات الهاجانا ، حيث صار هو المسئول عن وضع الخطط الحربية للعصابة أثناء حرب ١٩٤٨ ، وتم تعيينه رئيسا لأركان الجيش الإسرائيلى عام ١٩٤٩ ، وهو بعد فى الثانية والثلاثين من العمر . ولم يكن يادين أمينا عندما استند إلى عدم وجود الفخار اليونانى للقول بأن مدينة حاصور كانت قد تحطمت فى ذلك الوقت . فلقد فسر العالم السويدى «آرين فورمارك» ، المتخصص فى الفخار اليونانى ، هذه الظاهرة بقوله بأن مدينة «أرجوليس» اليونانية التى كانت تنتج هذا النوع من الفخار تعرضت هى نفسها فى تلك الفترة إلى الدمار ، وانقطعت اتصالاتها التجارية بالعالم ، فلم يصل أى من إنتاجها إلى بلاد الشام فى تلك الفترة . وعلى ذلك فإن هذا النوع من الفخار - الذى لم يعثر عليه

يادين فى حاصور - لم يتم العثور عليه فى أى موقع آخر فى بلاد الهلال الخصيب كذلك ، ببساطة لأنه لم يصل إلى هذه المنطقة أصلا . وماذا عن الدليل الآخر الذى استند إليه رئيس الأركان الإسرائيلى لإثبات أن حاصور قد تحطمت نتيجة لحرائق النيران؟

لم يجد يادين أى أثرٍ للنيران فى أى موقع من المدينة الكبيرة إلا فى مكان واحد هو موقع المعبد . وحتى هنا فإن يادين اعترف بأن بقايا السقف الساقط كانت بيضاء ، إن ما أقام عليه يادين حجته التى بها قرر تحدى كل الأدلة التاريخية والأثرية السابق ذكرها ، هو أنه وجد رمادا فى منطقة المعبد بالقرب من مذبح البخور . واعتمد يادين على مجرد وجود الرماد عند مذبح البخور للقول بأن حاصور بأكملها ، تم حرقها بالنار على يد الشعب المختار بقيادة يشوع !

إلا أن رجال الآثار أجمعوا على اعتبار قصة غزو يشوع لفلسطين ، مجرد رواية أسطورية ، حتى إن أحد كبار الأثريين الإسرائيليين أنفسهم هو الذى أثبت كذب ادعاءات يادين . فلقد نشر الدكتور «إسرائيل فلكلستاين» الأستاذ بجامعة تل أبيب ، بحثا منذ بضع سنوات قال فيه إن :

«كتاب يشوع لا يحتوى على حقائق تاريخية وإنما على قصص أسطورية كتبها الشعراء. وإن قصة الغزو الإسرائيلى لكنعان ما هى إلا أسطورة من تأليف اللاحقين خالية من أى صحة».

الفصل السادس

إمبراطورية تحتمس الثالث ومملكة داود

الفلسطينيون يصرفون داود

□ ثم حشد الفلسطينيون جيوشهم فى أفيق بينما تجمع الإسرائيليون عند العين التى فى يزرعيل.

فاستدعى أخيش (ملك الفلسطينيين) داود وقال له: «أقسم لك بالرب الحى إنك مستقيم، ويسرنى انضمامك إلى جيشى لأننى لم أجد فيك علة منذ أن جئت إلىّ حتى هذا اليوم، غير أن قادة جيشى ساخطون عليك. فامض الآن بسلام وعد إلى موضعك ولا تقترف ما يسىء إلى أقطاب الفلسطينيين». فقال داود: «ماذا جنيتُ، وأى علة وجدتَ فى عبدك منذ أن مثلت أمامك إلى اليوم حتى لا أشترك فى محاربة أعداء سيدى الملك الإسرائيليين؟». فقال أخيش: «إننى واثق أنك صالح فى عينى، كملاك الله، غير أن رؤساء الفلسطينيين أصروا قائلين: «لا يصعد داود معنا لخوض الحرب». □

«صموئيل الأول (٢٩ : ١ ـ ٩)»

هل حقا كان لبني إسرائيل دولة تمتد حدودها فيما بين النيل ونهر الفرات؟

في سبتمبر عام ١٩٩٥ أعلنت السلطات الإسرائيلية عن إقامة مهرجان أطلقت عليه اسم «القدس ٣٠٠٠»، قيل إنه يمثل ذكرى تأسيس الملك داود لمدينة القدس، لتكون عاصمة لمملكة إسرائيل. والمفروض على هذا الأساس أن بناء القدس تم منذ ثلاثة آلاف عام، أي في ١٠٠٥ قبل الميلاد. ومع ذلك فحتى هذه اللحظة لم يتمكن الأثريون من العثور على دليل يشير - صراحة أو كناية - إلى مملكة داود وسليمان في فلسطين. وبينما تقول رواية سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك الأول بأن الملك داود أقام إمبراطورية تمتد بين النيل والفرات، أورثها لسليمان بعد موته، فإن رجال الآثار لم يتمكنوا من العثور على ذكر واحد لأي من الملكين الإسرائيليين، رغم وجود ٣٠٠ موقع بأرض فلسطين تقوم فيها البعثات الأثرية بأعمال الحفر، في إسرائيل والضفة والقطاع. وأدى عدم ظهور أدلة أثرية تتفق مع قصص التوراة إلى الاعتقاد بأن هذه روايات أسطورية لا تعبر عن الأحداث التاريخية في المنطقة.

يقول توماس تومسون أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة كوبنهاجن الدنمركية: إن الاعتقاد الذي كان سائدا حتى القرن التاسع عشر، كان يذهب إلى اعتبار القصص التوراتية تمثل أحداثا تاريخية

حقيقية. ثم تغير هذا الموقف تماما الآن، بعد أن أظهرت نتائج الاكتشافات الأثرية عدم وجود أدلة تؤيد ما جاء فى هذه القصص من أحداث وتواريخ. فليس هناك دليل من الآثار على وجود مملكة إسرائيلية متحدة أيام شاؤول وداود وسليمان، كما لم ترد أية إشارة لهؤلاء الملوك فى المصادر التاريخية. ويعتقد تومسون أن قصص التوراة تضمنت أحداثا تاريخية قديمة لشعوب وممالك أخرى فى الشرق الأوسط، تم اقتباسها لتكون جزءا من تاريخ مملكة بنى إسرائيل. بل إنه يذهب إلى أن دولة يهوذا التوراتية لم تظهر إلا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، فى زمن الحكم الفارسى، ولم يكن لهذه الدولة أية علاقة بدولة إسرائيل التى قامت حول السامرة قبل ذلك ودمرها الآشوريون عام ٧٢٢ ق. م.

وتبين للأثريين أن الرواية المعروفة عن تاريخ القدس القديمة تختلف تماما عن ما أظهرته نتائج عمليات الحفر الأثرى التى قاموا بها فى هذه المدينة. وتمثل هذا الاختلاف بوضوح فى ما يتعلق بثلاث مراحل تاريخية هى: العصر البرونزى المتأخر (١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق. م.) والعصر الحديدى الأول (١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق. م.) وبداية العصر الحديدى الثانى (١٠٠٠ ق. م.) مما يؤكد عدم صحة التاريخ التوراتى المعروف عن المملكة التى أقامها داود بين النيل والفرات وورثها سليمان من بعده.

وجاءت غالبية البقايا التى تم العثور عليها والتى ترجع إلى العصر البرونزى المتأخر، من بعض المقابر، خاصة فى منطقة جبل الزيتون فى الشمال الشرقى، من بينها مئات القطع الفخارية، كما وجد بعضها

الآخـر فى مـوقع جنوبى المدينة ، عـثـر به على بعض الفـخـار والجعـارين . وتم الكشف عن بقـايا مـعبـد مـصرى شـمـالى القـدس القديمة ، إلا أنه لم يتم العثور على بقايا مدينة سكنية ولا أثر لأسوار أو بوابات أو مساكن على الإطلاق . ولم يتمكن رجال الآثار من العثور على أية مدينة سكنية ترجع إلى هذه الفترة ، حتى يمكن القول بأنها كانت عاصمة إسرائيل .

وتقول الرواية التوراتية إن القدس كانت مدينة يبوسية صغيرة عندما وصل بنو إسرائيل إلى فلسطين فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ثم استولى عليها الملك داود عند بداية الألف الأولى قبل الميلاد ، وأعاد بناءها ودعم حصونها لتصبح عاصمة لمملكة إسرائيل الموحدة . وقام ابنه سليمان من بعده بتوسعة أورشليم وبناء عدة قصور ملكية بها ، كما شيد معبد الهيكل فوق الصخرة . فالعصر البرونزى المتأخر هو الوقت الذى تقول القصة التوراتية إن بنى إسرائيل وصلوا فيه - بقيادة يشوع بن نون - إلى أرض فلسطين بعد خروجهم من مصر خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ثم حكمهم مجموعة من القضاة بعد ذلك خلال العصر الحديدى الأول فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، عندما كانت قبائل بنى إسرائيل لا تزال متفرقة ، إلى أن تم جمعها موحدة أيام شاؤول . وعند بداية العصر الحديدى الثانى تكونت مملكة داود وسليمان فى بداية القرن العاشر قبل الميلاد .

ومع أن عمليات البحث عن البقايا الأثرية القديمة فى القدس ازدادت بشكل ملحوظ منذ وقوع هذه المدينة فى أيدى السلطات

الإسرائيلية في يونيو ١٩٦٧ ، إلا أن عملية نشر نتائج هذه العمليات توقفت تماما منذ ذلك التاريخ. ومات المشرفون على أهم أربع عمليات للكشف الأثرى فى القدس منذ ذلك الحين ، دون أن نعرف شيئا عن تقاريرهم النهائية. فقد قامت البريطانية كاثلين كينيون بالعمل فى التل الجنوبى الشرقى للمدينة الذى يسمونه «مدينة داود»، ما بين ١٩٦١ و١٩٦٧ ، والذى يتضمن أقدم البنايات التى عثر عليها فى القدس. ثم تولى الإسرائيلى بنيامين مازار البحث فى المنطقة الواقعة جنوب الحرم الشريف في ما بين ١٩٦٨ إلى ١٩٨٣ ، وبعدذلك جاء إسرائيلى آخر هو نجمان أفيجاد ليحفر فى المنطقة اليهودية بالقدس الشرقية من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٨ . وبدأ الإسرائيلى ييجال شيلوح عمله من ١٩٧٨ واستمر فيه حتى ١٩٨٥ . ومات الأثريون الأربعة دون أن نرى تقاريرهم النهائية عن نتائج هذه العمليات، مما أثار العديد من التساؤلات! . وكانت المفاجأة عندما تم أخيرا إعلان نتائج هذه الحفريات، إذ تبين عدم وجود مدينة ولا أسوارفى الفترة التى تقول الرواية التوراتية بأن القدس كانت فيها عاصمة لداود وسليمان.

وبينما كان الباحثون الإسرائيليون الأوائل - من أمثال إيجال يادين - يحاولون إثبات تاريخية القصص التوراتية فى حرفيتها ، فإن هناك الآن فى إسرائيل جيلا جديدا من الأثريين الذين يرفضون قبول هذه النتائج دون دليل أثرى. فقد ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية مدرسة جديدة من الأثريين، لم تلجأ إلى محاولة إثبات صحة تاريخ ما جاء بالكتب التوراتية ، وإنما التزمت بقراءة الأدلة بشكل موضوعى ، من أمثال «كاثلين كينيون» البريطانية و«أميحاى مازار» و «أهارونى» من إسرائيل.

يقول إسرائيل فيلكنستاين - الأستاذ بجامعة تل أبيب - إن دخول بنى إسرائيل إلى أرض كنعان لم يتم بشكل جماعى، وإنما استغرق وقتا طويلا. تسللت خلاله القبائل إلى كنعان من الشمال والشرق والجنوب واستقرت بالمرتفعات الكنعانية، وكان القسم الذى جاء من مصر هو الذى جلب معه فكرة التوحيد. وهو ينكر تماما فكرة غزو بنى إسرائيل لفلسطين بقيادة يشوع، ويصل إلى أن تجمع هذه القبائل كان فيما بين القرنين ١٣ و ١٢ قبل الميلاد، فى المرتفعات الجنوبية.

وكان صموئيل هو آخر القضاة الذين مارسوا عملهم فى النصف الثانى من القرن ١١ ق. م.، وعندما توالت هزائم بنى إسرائيل أمام القوات الفلسطينية، اختار صموئيل رجلا من سلالة بنيامين - أصغر أولاد يعقوب - يدعى «شاؤول» ليكون ملكا على إسرائيل. ويقال إن شاؤول، الذى ورد ذكره فى القرآن باسم «طالوت»، كان أطول رجال بنى إسرائيل، وقد جاء ذكر هذه الواقعة فى سورة البقرة. ولم يصبح شاؤول ملكا بالمعنى الحديث، فقد ظل الإسرائيليون يعيشون متفرقين فى قبائل، كما كان الحال من قبل، ولم تقم بينهم سلطة مركزية تتولى تصريف أمورهم وجمع الضرائب منهم أو تحديد حدود للأرض الخاضعة لهم. كل ما حدث هو أن شاؤول أصبح له الحق فى استدعاء بعض الرجال من القبائل المختلفة للانضمام إلى جيشه الذى أصبح مسئولا عن حماية التحالف القبلى الإسرائيلى.

وبحسب هذه الرواية التوراتية فإن داود بن يسى من قبيلة يهوذا، كان يرعى الأغنام ويحسن العزف على العود، جاء ليعيش عند شاؤول، وهو الذى خلفه فى قيادة قبائل بنى إسرائيل. وتتضمن

الرواية التوراتية معلومات متناقضة عن هذا الملك. فنحن نجد داود ومعه جيشه المكون من ٦٠٠ رجل يحاربون فى صراع داخلى بين القبائل الإسرائيلية، أو مع الفلسطينيين(*)، وفجأة نجد تفاصيل معارك كبيرة تخوضها جيوش منظمة فى مواقع محصنة عديدة من أرض الهلال الخصيب، فلم يكن صدق الرواية التاريخية يهم الكهنة فى شىء إذ كان هدف الرواة الأساسى من ادعاء هذه الانتصارات الجبارة، هو حث بنى إسرائيل على ترك عبادة الأصنام والعودة إلى ديانة موسى، حتى ينصرهم ربهم على أعدائهم. ويموت داود تاركا لخليفته سليمان - وكان فتى صغيرا عند توليه العرش - إمبراطورية تمتد حدودها ما بين النيل والفرات دون أن يعرف أحد من أين جاءت هذه الإمبراطورية؟

وتقول قصة العهد القديم إن داود بعد أن صار ملكا على قبائل يهوذا وإسرائيل، قام بالاستيلاء على مدينة القدس عندما «ذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض... وأخذ داود حصن صهيون. (و) هى مدينة داود... وأقام داود فى الحصن وسماه مدينة داود».

ومع أن هذه الرواية لا تعطى تفاصيل المعارك التى خاضها داود مع اليبوسيين الذين قيل إنهم يعيشون فى مدينة القدس حتى يتمكن من

(*) بل جاء فى سفر صموئيل الأول؛ الأصحاح ٢٩ تحت عنوان «الفلسطينيون يصرفون داود» أن داود أراد أن يحارب فى صفوف الفلسطينيين ضد العبرانيين، فرفض قادة الجيش الفلسطينى ذلك، فقال داود للملك الفلسطينى أخيش: ماذا جنيت وأى علة وجدت فى عبدك حتى لا أشترك فى محاربة أعداء سيدى الملك؟. (٨ - ٩).

الاستيلاء عليها، إلا أنها تشير إلى أن الطريقة التى استعملها الملك لدخول المدينة اعتمدت على الخدعة إلى جانب القتال، فلقد كانت المدينة مقامة على هضبة جبلية مرتفعة، تعتمد فى حصولها على المياه على نبع يقع فى الوادى أسفل المدينة. وكانت هناك بئر محفورة من داخل أسوار المدينة تصل إلى عين الماء فى الوادى، حتى يتمكن أهل المدينة من الحصول على الماء عن طريقها فى حالة حصارهم، واستخدم داود هذه البئر لمباغتة اليبوسيين ودخول المدينة. ولم نحصل على تفاصيل هذه القصة المنسوبة إلى داود، فى أى مصدر تاريخى، ولم ترد الإشارة إلى داود نفسه فى المصادر المصرية أو البابلية، فكان من الطبيعى أن يحاول الأثريون فى العصر الحديث العثور على الأدلة للتأكد من صحة هذا الجزء من القصة تاريخيا، كما وردت عنه فى سفر صموئيل الثانى من كتب العهد القديم.

وكانت بعض المصادر التاريخية التى جاء بها ذكر أورشليم قد أوحت من قبل بوجود مدينة القدس المحصنة، على الأقل منذ القرن الرابع عشر السابق للميلاد. فهناك ستة خطابات من بين رسائل العمارنة التى وجدت فى مصر قبل نهاية القرن الماضى، كتبها «عبدى خيبة» من أورشليم إلى الملوك المصريين. واستنادا إلى هذه الرسائل قال المؤرخون بوجود مدينة كبيرة فى منطقة القدس خلال حكم الملك إخناتون وأمنحتب الثالث، فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وجاءت نتائج الكشف الأثرى الأخير متعارضة تماما مع هذا الاعتقاد، حيث لم يتم العثور على بقايا أية مدينة قديمة فى موقع القدس ترجع إلى تلك الفترة الزمنية. ويبدو الآن أن أورشليم هذه لم تكن مدينة سكنية، وإنما كانت

مزرعة أقيمت عندها نقطة للحراسة العسكرية لتأمين الطريق المؤدى إلى بيت شان فى الشمال.

وعلى ذلك فإن قصة استيلاء داود على مدينة القدس، والتى لم ترد إلا فى كتب العهد القديم، لم تؤيدها الأدلة التى عثر عليها الأثريون فى الموقع نفسه. وكل الأدلة المتوفرة الآن تؤكد أن بنى إسرائيل لم يدخلوا أورشليم ولا هم قدسوا فى معبدها، وكان اليهود العائدون من بابل هم أول من فعل ذلك بعد سقوط الإمبراطورية البابلية على يد قورش الفارسى. وأضيفت هذه المعلومات التى لا أصل لها من التاريخ إلى أسفار العهد القديم فيما بعد، وبحسب ما ذهب إليه توماس تومسون، فإن سكان منطقة أورشليم فى عصر داود كانوا أقل من خمسة آلاف شخص، مما يصعب معه القول بأنها كانت عاصمة لإمبراطورية كبيرة، وهو يرى أن علاقة اليهود بالقدس لم تبدأ إلا منذ القرن الرابع قبل الميلاد فقط.

أعاد الكهنة الذين دونوا كتب العهد القديم صياغتها وهم فى بابل - خلال القرن السادس ق. م. - واستعاروا من الكتابات المصرية قصة حروب تحتمس الثالث، أعظم ملوك العالم القديم، لتكوين الإمبراطورية المصرية بين النيل والفرات - كما نجدها منقوشة على جدران معبد الكرنك - وأضافوها إلى رواية ملكهم داود. بل إنهم لم يحاولوا مزج الجزء الذى استعاروه من المصادرالمصرية، وأدخلوه كما هو بدون تعديل كبير، فى وسط الرواية الرئيسية فبدا واضحا أنه لا علاقة له بباقى القصة. فنحن نجد داود بنى إسرائيل ومعه جيشه المكون من ٦٠٠ رجل فى صراع داخلى بين القبائل الإسرائيلية أو مع

الفلسطينيين، وفجأة نجد تفاصيل معارك كبيرة تخوضها جيوش منظمة فى مواقع محصنة عديدة من أرض الهلال الخصيب(*).

ونحن نجد ذكر تفاصيل المعارك التى خاضها داود فى سفر صموئيل الثانى، وهى مكررة فى سفر أخبار الأيام الأول، ويحتوى صموئيل الثانى على ٢٤ أصحاحا، اثنان منها مستعاران ـ فى كثير من أجزائهما ـ من القصة المصرية هما رقما ٨ و ١٠ . كما أن القصة التى وردت فى الأصحاح الخامس بخصوص استيلاء داود على مدينة القدس، قد تم اقتباسها وإجراء تعديلات عليها. وفى استطاعتنا ملاحظة الفرق الكبير بين داود هذه الرواية وبين الملك الذى يحكى عنه الجزء المستعار، حيث: «ضرب داود حداد عزر بن رحوب ملك صوبة (بشمال سوريا) حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات». أى أن الملك كان قد ورث مملكة تمتد سلطتها إلى نهر الفرات وفقدها، وهو عند خروجه لاسترجاعها قد هزم ملك شمال سورية.

(*) كذلك فإنه أصبح معروفًا للدارسين ـ وكثير غيرهم من المهتمين بتاريخ مصر القديم ـ أن جزءًا من مزامير داود ـ وغيره من نصوص العهد القديم ـ ما هو إلا تسابيح وترانيم مصرية وبابلية وآشورية قديمة. ويمكن الرجوع فى ذلك للمصادر الآتية:

(١) التوراة الهيروغليفية ـ د. فؤاد حسنين على ـ دار الكاتب العربى (صفحة ١٣٠ ـ ١٤٠).

(٢) مصر فى القرآن والسنة ـ د. أحمد يوسف دار الشروق (صفحة ٢٤٠ ـ ٢٥٩).

(٣) الفكر الدينى اليهودى ـ د. حسن ظاظا ـ دار القلم. دمشق (صفحة ٤٦ ـ ٥٢).

(٤) أثينا السوداء، مارتن بال، ترجمة ونشر المجلس الأعلى للثقافة تحرير ومراجعة د. أحمد عتمان (صفحة ٢٦٧، ٢٦٨).

(٥) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ـ د. عبد الوهاب المسيرى ـ دار الشروق ـ ج٥ صفحة (٢٢، ٢٣).

ولا يوجد أى ذكر عن هذه المملكة الكبيرة فى قصة شاؤول الذى خلفه داود فى ملكه، بل إننا لو تفحصنا سيرة جميع ملوك العالم القديم، قبل عصر كورش الفارسى خلال القرن الخامس ق . م . ، لوجدنا أن تحتمس الثالث - سادس ملوك الأسرة ١٨ المصرية - هو الملك الوحيد الذى تَمكّن من مد حدوده بين النيل والفرات . وكان تحتمس الأول - قد استطاع الوصول عبر الفرات من قبل، حيث أقام مسلة فى جنوب آسيا الصغرى يحكى فيها أخبار انتصاراته، ولكن سرعان ما ضاع النفوذ المصرى هناك خلال حكم حتشبسوت المسالم فعاد تحتمس الثالث لاسترداد سلطته عند نهر الفرات . ولا تزال تفاصيل المعارك التى استعارها الكهنة لقصة داود بنى إسرائيل منقوشة إلى أيامنا هذه، على جدران معبد الكرنك وفى سجلات حروب تحتمس الثالث . ونحن نجد هنا صدى لأهم معركة خاضها تحتمس الثالث - عام ١٤٦٨ ق . م . - عندما تجمع ٣٥٠ ملكا بجيوشهم لمحاربته، عند حصن «ماجيدو» بوسط كنعان، وصار اسم هذه المدينة في اللغة، منذ ذلك الوقت هو «المجد»، تعبيرا عما حققه الملك المصرى فى هذه المعركة من أعلى درجات الانتصار .

وهناك ثلاثة إصحاحات من الواضح أنها لا تنتمى إلى سياق الرواية، استعارها الكتبة عند صياغة القصة بشكلها الحالى - لا شك بسبب الحماس الدينى - وليس لها علاقة تاريخية بحياة داود بنى إسرائيل . فبدلا من القتال المستمر بينه وبين الفلسطينيين فى هضاب كنعان، نجد فى هذا الجزء قصة حروب عظيمة منسوبة إلى داود، ضد تحالف جبار من ملوك كنعان وآرام (سورية)، حيث يقوم داود بدور

المهاجم الذى يغزو كل تلك الممالك الواقعة بين نيل مصر وفرات ما بين النهرين . ومحور هذه الحروب هو المعركة الرئيسية التى دارت عند إحدى المدن المحصنة ، والتى تسميها القصة «ربة» ، فلقد استعان ملك هذه المدينة - الذى توقع هجوما عليه - بعدد من الملوك الحلفاء من كنعان وآرام تحت قيادة «هدد عزر» ملك إحدى مدن شمال سورية (تسمى هنا صوبة) ، وجاءت جيوش التحالف لتتجمع عند مدينته ، وسار داود بجيشه إلى أن اقترب من المدينة ، فوجد أن القوات المتحالفة قد قسمت نفسها إلى قسمين ، قسم ظل داخل أسوار المدينة والقسم الآخر تجمع فى الأرض المكشوفة على مقربة منها .

وكان رد داود على ذلك هو أنه قسم جيشه - هو الآخر - إلى قسمين ، وعند تلاقى الجيوش فى المعركة ، هرب قسم جيش التحالف المتجمع خارج المدينة وأسرع الملوك بدخول المدينة المحصنة وغلق أبوابها . وفرض جيش داود الحصار على المدينة ، وذهب داود للإقامة فى أورشليم حتى جاء وقت استسلامها :

«فجمع داود كل الشعب وذهب إلى «ربة» وحاربها وأخذها وأخذ تاج ملكهم عن رأسه ، ووزنه وزنة من الذهب مع حجر كريم ، وكان على رأس داود . وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جداً» صموئيل الثانى . الأصحاح (١٢ : ٢٩ - ٣١) .

ويبدو أن هدد عزر ملك صوبة ، كان قد استطاع الهرب من الحصار ، فنحن نراه مازال ينظم عمليات التمرد على سلطة داود ، إلى أن تمكن داود من هزيمته عندما سار إلى شمال سورية «حين ذهب ليرد

سلطته عند نهر الفرات... ونصب داود تذكارا (أقام لوحة) عند نهر الفرات».

وتحت عنوان «هزيمة الأراميين» روى العهد القديم ما يلي:

«وحين حاول هدد عزر بين رحوب، ملك صوبة أن يسترد سلطته على أعالي نهر الفرات هزمه داود، وأسر من جيشه ألفا وسبع مئة فارس وعشرين ألف راجل، وعرقب داود كل خيول المركبات باستثناء مئة مركبة. وعندما خف ملك أرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة، قتل داود من جيشه اثنين وعشرين ألف رجل. وأقام داود حاميات عسكرية في أرام دمشق، وأصبح الأراميون تابعين لداود يدفعون له الجزية، وكان الرب ينصر داود حيثما توجه. واستولى داود على أتراس الذهب التي كان يرتديها قادة هدد عزر وحملها إلى أورشليم. كما نقل داود الملك من باطح ومن بيروثاى مدينتى هدد عزر كمية هائلة من النحاس».

وعلى أثر هذه الانتصارات الهائلة استسلم لداود كل ملوك التحالف السورى الكنعانى وصاروا تابعين له:

«ولما رأى جميع الملوك عبيد هدد عزر أنهم انكسروا أمام إسرائيل صالحوا إسرائيل واستعبدوا لهم».

وأقام داود الحاميات العسكرية فى مناطق عديدة من كنعان وسورية، حتى يضمن استمرار سيطرته عليها وكانت شعوب كل هذه المناطق تدفع له الجزية.

وكما هو واضح، فإن هذه الأحداث لا تبدو أن لها علاقة بقصة داود بنى إسرائيل، كما أوردها سفر صموئيل الثانى، وإنما تتفق مع

أخبار حروب تحتمس الثالث، كما هي منقوشة على جدران معبد الكرنك. والرواية المصرية تقول إن تحتمس الثالث خرج بجيشه من مدينة «زارو» الحربية ـ عند القنطرة شرق ـ وسار في «طريق حورس» بشمال سيناء متجها إلى كنعان، ووصل الملك إلى مدينة غزة بعد عشرة أيام، وكانت خاضعة للنفوذ المصري. كانت معلومات قد وصلت إلى القيادة المصرية تفيد بأن ملك قادش جمع عددا كبيرا من ملوك سورية وكنعان، عند مدينة «ماجيدو» التي كانت أكبر مدينة محصنة بوسط كنعان. فسار تحتمس بجيشه في «طريق البحر»، وتوقف الركب عند سلسلة جبلية وعرة، كان لابد من عبورها للوصول إلى ماجيدو وملاقاة الأعداء في الجانب الشمالي من الجبال، وكانت هناك ثلاث طرق يمكن سلوكها للوصول إلى المدينة. بينما كان أحد الطرق الثلاث ينتهي عند شمال غربي ماجيدو كان الطريق الثاني يؤدي إلى جنوبها الشرقي، أما الطريق الثالث فكان يصل إلى المدينة مباشرة، إلا أنه كان ضيقا وعرا. وجمع الملك قادته ليبحث معهم خطة القتال، وسألهم عن أفضل الطرق التي يسلكونها للوصول إلى المدينة. واتفقت آراء القادة العسكريين في رفض الطريق الضيق، حيث إنه سيجعل المشاة يسيرون واحدا وراء الآخر، وعند وصول مقدمة الجيش إلى نهاية الطريق، تكون مؤخرته لا تزال في بدايته. إلا أن تحتمس قرر استخدام هذا الطريق ذاته، إذ يمكنه من مباغته العدو الذي يتوقع منه أن يأتي من أحد الطريقين الأكثر سهولة. وسار الملك في مقدمة جيشه، وعندما وصل إلى نهاية الطريق تأكد من أن خصومه قد قسموا قواتهم إلى جزأين، انتظر أحدهما في

الشمال والآخر فى الجنوب. فظل هو مختبئا داخل الجبل إلى أن وصلت باقى قواته، ثم خرج فجأة ممتطيا عجلته الحربية فأثار ظهوره المفاجئ الذعر فى نفوس أعدائه الذين وجدوه داخل صفوفهم. هرع الملوك للاختباء داخل أسوار المدينة، وترك الجنود مواقعهم وفروا هاربين تاركين وراءهم أسلحتهم وخيولهم وعجلاتهم.

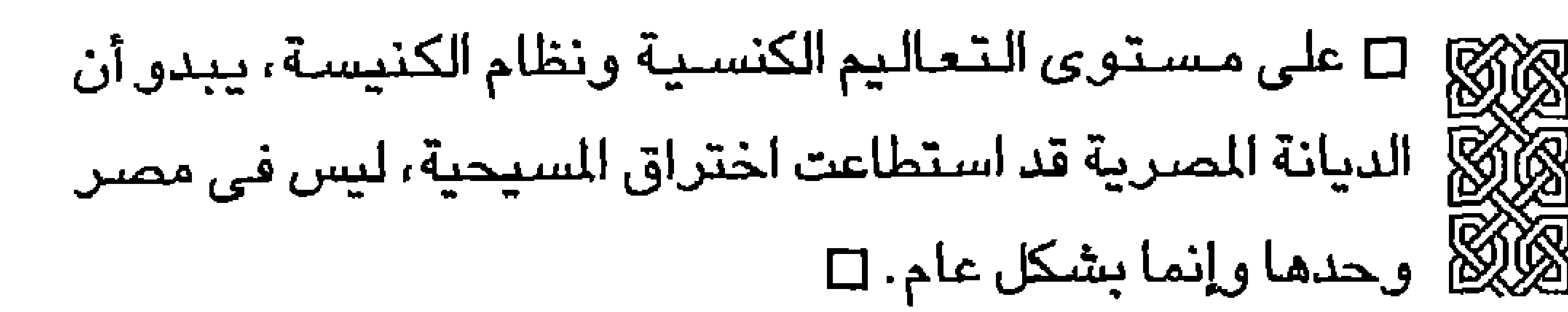
اضطر تحتمس إلى فرض الحصار على مدينة ماجيدو التى أغلقت أبوابها، إلا أن ملك قادش تمكن من الهرب وعاد إلى مدينته فى شمال سورية. وبعد مضى سبعة أشهر على الحصار، أرسل ملوك التحالف الكنعانى إلى تحتمس الثالث طالبين السلام. وجاء تحتمس إلى ماجيدو وتسلم أسلحتهم ودخل المدينة فى اليوم الذى أعلن فيه ٣٥٠ من ملوك كنعان ولاءهم للملك المصرى.

ومع هذا فإن ملك قادش - المدينة المحصنة التى عثر على بقاياها بموقع تل نبى عند جنوب مدينة قتنا بشمال سورية - عاد لتجميع الملوك المتمردين على السلطة المصرية فى بلاد الشام. فسار إليه تحتمس الثالث بعد سبع سنوات من سقوط ماجيدو، واستولى على قادش ثم عبر نهر الفرات شرقا إلى بلاد نهرينا، حيث أقام هناك نصبا يسجل به أخبار انتصاراته.

ومن السهل ملاحظة مدى التشابه بين حروب داود كما وردت فى التوراة، وحروب تحتمس الثالث كما وجدت منقوشة على جدار معبد الكرنك، وإن اختلفت تسمية المواقع والأفراد. وفى اعتقادى أن كتبة التوراة استعاروا قصة فتوحات الملك المصري وأضافوها إلى

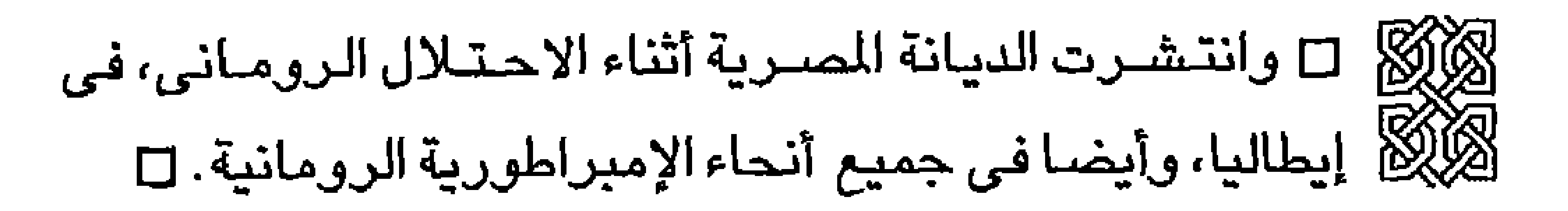
داود حتى يجعلوه ملكا جبارا أقام إمبراطورية تمتد بين النيل والفرات. بل إننا لا نجد ولو دليلا أثريا واحدا فى أى موقع يتحدث عن داود العهد القديم، أو يبين مملكته. فقصة التوراة فيما يتعلق بمملكة داود، هى مجرد رواية أسطورية، مثل حكايات أبى زيد الهلالى فى الأدب العربى، وإن كانت أحداثها حقيقية لأنها اقتبست من مصادر التاريخ المصرى القديم.

الجـــزء الثانى



□ على مستوى التعاليم الكنسية ونظام الكنيسة، يبدو أن الديانة المصرية قد استطاعت اختراق المسيحية، ليس فى مصر وحدها وإنما بشكل عام. □

«أثينا السوداء - صفحة ٢٤٩»



□ وانتشرت الديانة المصرية أثناء الاحتلال الرومانى، فى إيطاليا، وأيضا فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. □

«التراث المسروق - صفحة ٤٨»

الفصل السابع

إيزيس تغزو الإمبراطورية الرومانية

□وكانت إيزيس الإلهة المصرية، والأم الحزينة، والمواسية المحبة، وحاملة هبة الحياة الخالدة، كانت هذه الإلهة تلقى من التكريم أكثر مما تلقاه سيبيل؛ وكانت كل شعوب البحر الأبيض المتوسط تعرف كيف مات زوجها العظيم، وكيف قام بعدئذ من بين الموتى؛ وكان يحتفل بهذا البعث السعيد فى كل مدينة كبيرة؛ وكان المبتهجون ينادون «لقد وجدنا أوزريس من جديد». وكانوا يرمزون إلى إيزيس بصور وتماثيل تحمل بين ذراعيها حورس ابنها الإلهى، ويسمونها فى الأوراد والأدعية «ملكة السماء»، و«نجم البحر»، و«أم الإله». وكانت هذه الطقوس أقرب العبادات الوثنية إلى المسيحية. وانتشر دين إيزيس من مصر إلى بلاد اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد، ثم انتشر إلى صقلية فى القرن الثالث، وإلى إيطاليا فى القرن الثانى، ثم انتشر بعدئذ فى جميع أجزاء الإمبراطورية. وقد عثر على صورها المقدسة على ضفاف نهرى الدانوب والسين، وكشف عن آثار معبد لها فى لندن . □

«قصة الحضارة، ول ديورانت ج ١١ صفحة ١٤٧، ١٤٨»

تطور عبادة أوزوريس

إذا نظرنا بشكل عام إلى عقائد المصريين القدماء، لوجدنا أن عقيدة أوزوريس كانت هى جوهر الديانة المصرية منذ بداية التاريخ فى النصف الثانى من الألف الرابع قبل الميلاد، وحتى بداية العصر المسيحى. فنحن نجد عقيدة أوزوريس فى أبيدوس بالصعيد سبعة قرون قبل بناء الهرم الأكبر، حتى قبل وحدة الأرضين وقبل عصر الملك مينا. وطبقا للرواية الشائعة، فإن سيت قتل أخاه أوزوريس، ثم مزق جسده قطعا وألقى بكل قطعة منها فى مكان مختلف من أرض مصر، حتى لا يتم دفنه. إلا أن إيزيس - أخته وزوجته - تمكنت من جمع أجزائه واستطاعت عن طريق استخدام طقوس وتعاويذ سحرية، إعادته إلى الحياة. ومنذ ذلك الحين أصبح أوزوريس هو إله العالم السفلى وحاكم عالم الأموات. وهكذا فإن جوهر عقيدة أوزوريس المصرية يقوم على الاعتقاد بوجود حياة بعد الموت.

وفى البداية اقتصر الأمل فى الحياة الأخرى على الملوك والنبلاء، القادرين على تحمل نفقات التحنيط والدفن الباهظة. إلا أنه بعد وفاة توت غنخ آمون فى السنوات الأخيرة من حكم الأسرة الثامنة عشرة، بدأت عملية تغيير شاملة فى ديانة أوزوريس أدت فى النهاية - خلال العصر البطلمى - إلى حدوث تطور هام فى العقيدة المصرية. فقد أخذت ديانة أوزوريس شكلا آخراً منذ بداية حكم البطالمة فى الاسكندرية تحت اسم سرابيس، وساد الاعتقاد بأن من يشترك فى

طقوس خاصة لهذا المعبود ـ تتضمن العمادة بالماء ـ يصبح له الحق فى الحياة الأخرى، دون الحاجة إلى التحنيط . وبهذا فتحت عبادة أوزوريس باب الأمل أمام جماهير الفقراء فى الحياة بعد الموت، فانتشرت بسرعة بين أبناء الشعب، حتى صارت هى ديانة الجماهير المصرية بشكل عام . واعتمدت ديانة سرابيس على عنصرين أساسيين هما : أوزوريس، وأبيس العجل المقدس لمدينة منف، رمز للمعبود بتاح، وإن كانت تماثيل سرابيس تظهره على شكل رجل كثيف الشعر .

أصبحت عبادة سرابيس تمثل الشكل النهائى للعقائد المصرية، بعد حوالى أربعة آلاف عام من التطور . وكان أهم هذه التطورات ما جرى خلال ثورة العمارنة فى القرن ١٤ قبل الميلاد، عندما أدرك إخناتون وحدانية الوجود الإلهى الذى لا يمكن أن يتمثل فى صورة أو تمثال . وبعد انتهاء حكم العمارنة، أزيلت كافة آثار الثورة الدينية التوحيدية، واستعادت ديانة آمون مكانتها كديانة رسمية للدولة . وعلى الرغم من ذلك، فقد اكتسبت ديانة أوزوريس منذ بداية الأسرة ١٩ مزيدا من الشعبية، وزاد عدد اتباعها إلى أن صارت هى أقوى ديانة فى مصر مع بدء حكم البطالمة فى بداية القرن الثالث قبل الميلاد . وفى ذات الوقت جرت عملية تطور بطيئة فى عقيدة أوزوريس، أدت فى النهاية إلى ظهور فكرة وجود إله واحد للحياة والموت كذلك، يتمثل فى نور يدركه المؤمن فى داخله . كما تم تفسير موت المخلص وقيامته، على أنه يعنى خلود الروح الإنسانية، التى هى فى ذات الوقت جزء من الروح الكلية للمعبود . وهكذا يأتى الخلاص عندما تعود روح الإنسان إلى الالتصاق ببارئها، فلا يكون هناك موت أو حاجة إلى حفظ الجسد وتحنيطه .

ولهذا فعند ظهور المسيحية فى القرن الأول للميلاد حينما قال الحواريون برؤيتهم لمجد المسيح بعد قيامته من بين الأموات، لم يكن هذا حدثا مفاجئا بالنسبة للمصريين. فكانت مصر هى أول بلد فى العالم تنتشر فيه المسيحية بين الغالبية العظمى من أبنائه.

كان الاسكندر المقدونى قد وضع حجر الأساس لبناء مدينة الإسكندرية قبل نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وبعد موته توزعت إمبراطوريته بين أربعة من قادته المقدونيين، فأصبحت مصر من نصيب بطليموس. ونصّب بطليموس نفسه ملكا على مصر، وجعل الإسكندرية عاصمة له، ودام حكم أسرته حوالى ثلاثة قرون، إلى أن تمكن أكتافيوس أغسطس من هزيمة كيلوپاترا ومارك أنتونى عام ٣٠ ق. م، فصارت مصر مستعمرة رومانية. وجاء إلى مصر أعداد كبيرة من المهاجرين من مقدونيا واليونان وآسيا الصغرى، للعمل كجنود مرتزقة فى جيوش البطالمة، كما وفد إليها الباحثون من جميع أنحاء العالم. وبالرغم من هزيمتها، استمرت الإسكندرية هى العاصمة الثقافية والدينية للإمبراطورية الرومانية، بيما كانت روما هى العاصمة السياسية.

أقام بطليموس الأول عبادة سرابيس بمساعدة مانيتون كاهن عين شمس، كما أقام معبد السرابيوم فى حى راخوتس المصرى غربى المدينة. وكان بطليموس لا يأل جهدا فى سبيل نشر الثقافة المصرية فى أنحاء العالم اليونانى والرومانى، فانتشرت عبادة سرابيس سريعا من الإسكندرية إلى معظم بلدان اليونان وإيطاليا. وبمرور الزمن ظهرت الآلهة المصرية فى العالم القديم على شكل عائلة مقدسة، تتكون من

أوزوريس وزوجته إيزيس وحورس ابنهما، وبحلول النصف الأول من القرن المسيحى الأول كانت ديانة سرابيس قد أصبحت هى أكثر الديانات انتشارا فى بلدان الإمبراطورية الرومانية .

الاعتقادات الدينية عند الإغريق

كانت آلهة الأوليمب تمثل القوى الفطرية للطبيعة المتوحشة تبدو على هيئة شخصيات إنسانية، وكان البشر يشعرون بأنهم ألعوبة فى أيديها . وظهرت فى الفنون أشكالا لوحوش خرافية تهدد البشر، مثل : المدوسة ذات الرؤوس المتعددة، تعبيرا عن مشاعر الخوف الدفينة فى النفس البشرية . ولم يكن هناك شكل موحد للديانة الإغريقية فى يوم من الأيام، وعندما خرج الإغريق من عصور الظلام فى بداية القرن الثامن ق . م كانت توجد وحدات اجتماعية وسياسية صغيرة لكل منها مجموعة من الآلهة خاصة بها، وإن ظهر تشابها بين مجموعات المدن المختلفة، مما جعل هناك اشتراكا عاما فى مظاهر أساسية للديانات الإغريقية بشكل عام . ولم تكن الديانة الإغريقية تفرق بين ما هو مقدس وما هو دنيوي، ولا تهتم إلا بما يتعلق بالحياة الدنيا، فلم يكن هناك اعتقاد فى حياة أخرى، كما لم يكن لها كتابات مقدسة أو إعلان شهادة أو قبول عمادة وليس بها مكانا للنساء . فالديانة الإغريقية محصورة فى مسائل الحياة الدنيوية وليس لها علاقة بالحياة الأخرى، وكان الموت يعتبر هو نهاية الحياة، بالرغم من اعتقاد الناس بوجود عالم سفلى .

تكونت مجموعة الأوليمب من آلهة لكل منها اختصاص معين بحيث أنها ـ فى مجموعها ـ تغطى كل نواحى الحياة الدنيوية، وقد تكمل بعضها أو تتصارع فيما بينها . وكان التدين ـ أو الورع ـ يتوقف

عند مجرد الحفاظ على عادات الأجداد، كما قال سقراط معلم البلاغة الأثينى: «التـدين... (هو)، عدم تغيير شيء مما خلفه لنا أسلافنا». (الكتاب ٧ ـ الجزء ٣٠). ولهذا كان التجديد فى الاعتقاد هو السبب الذى استندت إليه سلطات أثينا لإعدام فيلسوفها سقراط، الذى اتهمته بالتجديد فى مسائل تتعلق بالآلهة. ولم تكن الآلهة منفصلة عن البشر وحياتهم اليومية، بل هى تشترك معهم فى نشاطهم الاجتماعى، وتذكر الأساطير كيف كانت تزور الناس وتختلط بهم، فلم يكن هناك فاصل بين عالم السماء وعالم الأرض. ولا كان الحب أو الاحترام هو الذى يدفع الناس إلى عبادة آلهة الأوليمب، وإنما الخوف والرعب، فلم يكن سكان الأوليمب يعبرون عن الحق والعدل ولم تكن قواعد الأخلاق والسلوك الصحيح جزءا من الاعتقادات الدينية لدى الإغريق، مثل ما نراه لدى الشرقيين فى كتاب الموتى أو فى قانون حمورابى.

وأخذ الرومان عن الإغريق اعتقاداتهم الدينية بتفاصيلها دون تغيير، ولهذا فعند اختلاط الإغريق والرومان بالمصريين، اندفعوا فى قبولهم للعقائد المصرية وخاصة عقيدة سرابيس وإيزيس، والتى اكتسحت آلهتهم القديمة، عديمة الجاذبية.

ظهور المسيحية داخل المعابد المصرية

وأدى انتشار الديانة المصرية فى بلدان الإمبراطورية الرومانية إلى التمهيد لانتشار المسيحية. ومع هذا فلم تقل شعبية الديانة المصرية نتيجة لذلك. فقد أظهرت الأعمال الأثرية زيادة عدد المعابد التى أقيمت للديانة المصرية فى أنحاء الإمبراطورية خلال القرن الثانى

للميلاد، عما كانت عليه من قبل. بل إن الغريب فى الأمر أن الكثير من الجماعات المسيحية الأولى ـ سواء فى مصر أو فى باقى البلدان ـ نشأت فى البداية داخل معابد سرابيس وإيزيس. وأصبح المسيحيون الجدد فى روما يعتبرون ذات الرسوم والتماثيل التى تمثل إيزيس وابنها حورس، على أنها صور لمريم وابنها يسوع. وقد لاحظ هذا الأمر الإمبراطور الرومانى هاديان بعد زيارته للإسكندرية عام ١٣٤، فكتب خطابا إلى سرفيانوس زوج أخته يقول فيه:

«أنت تمتدح مصر يا عزيزى سرفيانوس! لقد عرفت أرضها من الشمال إلى الجنوب... فيها يسمى عبدة سرابيس أنفسهم مسيحيين، وأولئك الذين يطلقون على أنفسهم ألقاب أساقفة المسيح يدفعون نذورهم إلى سرابيس (كذلك)، وعندما يأتى البطريق ذاته إلى مصر يعتبره البعض مؤمنا بسرابيس، بينما يعتبره آخرون مؤمنا بالمسيح..».

ويسهل علينا فهم هذا الاعتقاد المزدوج، إذا ما عرفنا أن حياة ومعاناة السيد المسيح تتشابه مع ما حدث لأوزوريس من قبل، وفى كتابه عن «جذور أوزوريس وديانته»، يذكر الباحث جوين جريفتس أنه فى حالة أوزوريس والملوك النبلاء الذين حفظت أجسادهم عن طريق التحنيط، كان ينظر للموت باعتباره شكلا من أشكال النوم، والمتوقع أن ينهض الجسد مرة أخرى. واستطرد قائلا: «وفى الوقت نفسه فنحن نؤمن فى التعاليم المسيحية بقيام السيد المسيح من القبر بجسده، مما يعنى أن الجسد الحالى سوف ينهض مرة أخرى بعد الموت أو يتم إعطاء جسد سماوى للمؤمنين. وتتشابه هذه التعاليم مع تلك التى توجد فى العقيدة الأوزوريسية ـ نسبة إلى أوزوريس ـ لذا فإن استخدام مصطلح القيامة ليس مضللا، لأن المقارنة بين الموت والنوم

موجودة أيضا فى الفكر المسيحى(*) كما فى الرسالة (بولس) إلى مؤمنى أفسس: استيقظ أيها النائم، وقم من بين الأموت فيشرق عليك نور المسيح (٥ : ١٤)». أما العمادة بالماء، فكانت جزءا من شعائر سرابيس كذلك، وفى مقال له ب «جورنال الآثار المصرية» الذى يصدر فى لندن، ناقش عالم المصريات البريطانى سير آلان جاردنر فكرة التعميد المصرى ومماثلته للتعميد المسيحى. ودلل جاردنر على أقواله بـ ٣٦ مشهدا مصريا، أحدها موجود فى متحف الڤاتيكان بروما، يظهر فيها الفراعنة وهم يتعمدون بالماء. كما وجدت رسومات مشابهة فى مشاهد الدفن بمقابر الملوك والنبلاء، دلالة على توحدهم مع أوزوريس. ويعلق جاردنر على التشابة بين التعميد المصرى والتعميد المسيحى بقوله: «فى كلتا الحالتين يحدث تطهر رمزى بالماء من أجل الإعداد لحياة دينية صحيحة. ويمكن رؤية مشاهد تعميد الأبناء عند الميلاد المقدس، وذلك فى معبد حتشبسوت بالدير البحرى ومعبد أمنحتب الثالث بالأقصر، وتقول النصوص المصاحبة: كن طاهرا، أنت وروحك (كا) لكى تعيش إلى الأبد».

وترسم كافة المشاهد التى تظهر فى الماء وهو يصب على رأس الشخص الذى يتم تعميده من إبريق كبير، ويظهر على شكل مجموعة من علامات عنخ، أو رمز الحياة الأبدية عند المصريين.

(*) بل وفى الفكر الإسلامى ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (سورة الزمر: الآية ٤٢).

ومن مظاهر تأثر الرومان في عقيدتهم بالديانة المصرية، حرصهم على نقل المسلات المصرية إلى روما، حيث تمتلك روما الآن ثلاث عشرة مسلة، بينما كل ما يوجد في باقي أنحاء العالم من مسلات - بما في ذلك في مصر نفسها - لا يتعدى ثمان مسلات. كانت المسلات في الأساس هي رموز شمسية ترتبط بعبادة الشمس في مصر القديمة، ثم أصبحت تشير كذلك إلى ارتباط البشر على الأرض بنور الإله في السماء. وأطول المسلات كلية هي تلك التي تقف الآن في ساحة سان چيوفاني بمنطقة لاتيرانو بروما، يبلغ ارتفاعها أكثر من ثلاثين مترا ووزنها أكثر من ٤٠ طن. تم نحت هذه المسلة في أسوان في عهد تحتمس الثالث، ثم وضعت في معبد الكرنك الذي كان هو المركز الرئيسي للعبادة آنذاك. وعندما تحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية في بداية القرن الميلادي الرابع، قرر نقل هذه المسلة من الكرنك وإهدائها إلى كنيسة روما، إلا أنه مات بعد وصولها إلى الإسكندرية، فظلت هناك لمدة عشرين عاما قبل أن يقرر ابنه قسطنطين الثاني نقلها إلى روما ٣٥٧. ويعلق المؤرخ اليوناني أميانوس مارسيلينوس المعاصر لهذا الإهداء النهائي للمسلة بقوله: «إن تسليم هذه المسلة إلى روما، يشير إلى رغبة الإمبراطور في نقل المركز الديني للعالم، من مصر إلى روما».

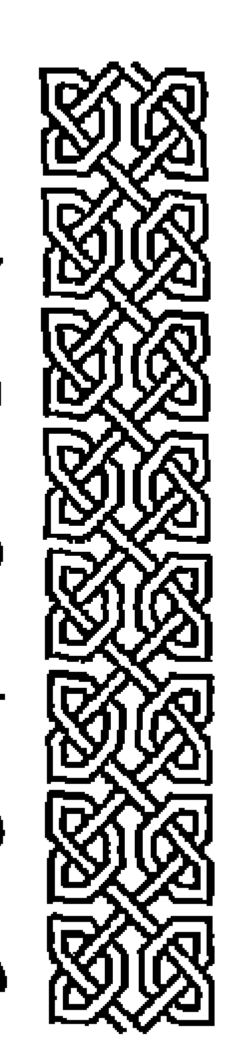
بل إن وصول الديانة المسيحية نفسها إلى روما قد يكون عن طريق الديانة المصرية القديمة. فبينما هناك العديد من الدلائل لظهور المسيحية في روما في وقت مبكر قبل وصول أي من الحواريين إليها، فإن الاحتمال الغالب أن كنيسة روما نشأت داخل معابد الديانة

المصرية هناك . ويحدثنا سترابو الباحث الجغرافى اليونانى ، الذى زار مصر عام ٢٥ قبل الميلاد ، عن وجود ثلاثة فيالق للجيش الرومانى فى مدينة بابيليون ـ مصر القديمة حاليا ـ على الجانب المقابل للنيل من مدينة منف . وكان هناك معبد كبير لسرابيس فى منف ، انتشرت عبادته بين الجنود الرومان على الضفة الأخرى للنهر ، وكان بعض هؤلاء الجنود يأخذون معهم عبادتهم الجديدة عند عودتهم إلى روما . ولهذا فنحن نرى أن الإمبراطور تيبيريوس عندما طرد اليهود الذين بلغوا سن التجنيد من روما عام ١٩ للميلاد ، فهو قد طرد فى الوقت ذاته معتنقى ديانة سرابيس من هناك .

وبحلول النصف الثانى للقرن الأول للميلاد ، أصبح لأتباع سرابيس ـ أو أهل السراب ـ انتشارا واسعا فى جميع أنحاء العالم . ويحدثنا الكاتب اليهودى فيلو السكندرى الذى زار روما أثناء حكم كاليجولا (٣٧ ـ ٤١م) فى كتابه عن «الحياة التأملية» ، عن أتباع سرابيس ـ الذى يسميهم باليونانية ثيرابوتيه ـ بأنهم مواطنو السماء الذين قبلهم الرب خالق العالم . وذكر فيلو أن السرابيين انتشروا فى جميع أنحاء العالم المتحضر ، إلا أنهم كانوا كثيرين فى مصر ، فى جميع المقاطعات وبخاصة حول الإسكندرية . وفى كتابه عن تاريخ الكنيسة الذى صدر فى منتصف القرن الثالث ، وصف يوسيبيوس ـ أسقف قيصرية على الساحل الفلسطينى ـ السرابيين ، بأنهم يمثلون أقدم الكنائس المسيحية فى مصر . وظل معبد السرابيوم الذى كان يشتمل على مكتبة الإسكندرية ، هو المركز العالمى للعبادة والحكمة والمعرفة ، إلى أن حطمه الرومان عام ٣٩١ ، بعد أربعة قرون من سقوط مصر فى أيديهم .

الفصل الثامن

الفرق اليهودية والعارفون



□ ظهر مبشر من مصر فى القدس، تمكن من جمع آلاف اليهود تحت قيادته. قال إنه نبى ودعا العامة أن يسيروا معه إلى جبل الزيتون.. وقال إنه سيريهم كيف تسقط جدران أورشليم بأمره. وعندما تم إبلاغ فيلكس (الحاكم الرومانى) بهذه الأشياء أمر جنوده بأخذ أسلحتهم وهاجم المصرى والناس الذين كانوا معه؛ فذبح أربعمائة منهم وأخذ مائتين أحياء. ولكن المصرى نفسه هرب من المعركة ولم يظهر ثانية.□

«أعمال فلافيوس يوسيفوس(*) The Works of F.Josephus صفحة ٥٤٣ ـ ٥٤٤ نشرت فى لندن عام ١٨٤٢ من ترجمة وليام ويستون»

(*) المؤرخ اليهودى الذى مات فى روما عند نهاية القرن الأول الميلادى.

لم يتوقف تأثير التاريخ المصرى - سواء فى أحداثه أو فى أشخاصه - على كتبة العهد القديم من الكتاب المقدس ، فقد لجأت كنيسة روما إلى تغيير التاريخ الأول للحركة المسيحية ، حتى تخفى دور وتأثير مصر فى نشر الديانة الجديدة . فبعد حرق مكتبة الإسكندرية عام ٣٩١ واختفاء الكتابات القديمة التى تبين ذلك ، أعادت روما كتابة التاريخ مستبعدة الدور المصرى تماما من رواياتها . بل إن الكتابات الرومانية وجهت الاتهام إلى الجماعات المسيحية المصرية الأولى بالهرطقة ، وحرمت تعاليمها وكتاباتها . وفى مصر نفسها ، أصبح أسقف الإسكندرية يعين من قبل كنيسة روما ، وكان من أهم أعماله محاربة الجماعات القبطية المصرية ، واضطهاد كهنتها ورهبانها الذين قرروا الانفصال عن مجلس الكنائس العالمى الذى سيطرت عليه روما . وتبعت بيزنطة - التى خلفت روما فى حكم مصر نفس أسلوب الاضطهاد تجاه الكنيسة المصرية ، حتى إن أقباط مصر - كانوا هم أول من رحب بعمرو بن العاص عند وصوله إلى الفسطاط عام ٦٤٠م ، وهم الذين ساعدوه فى الوصول إلى الإسكندرية للقضاء على الحامية البيزنطية هناك .

كانت توجد كنيستان عند بداية التاريخ المسيحى ، إحداهما فى فلسطين والثانية فى مصر . وبينما كانت كنيسة القدس - التى تزعمها القديس بطرس - تقصر دعوتها على اليهود ، فلا يمكن لغير اليهودى الانتماء إليها ، فإن الكنيسة المصرية كانت أممية منذ البداية ، تسمح لليهود وغير اليهود بدخولها . لذلك كانت مصر هى مصدر العقيدة المسيحية

التى انتشرت بين الأمم فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية، ورغم ذلك أصر أساقفة روما على أنها جاءت من اليهودية فى فلسطين. وجاء بولس الرسول الذى نشر المسيحية بين الأمم إلى مصر ليتعلم فيها. وعندما قامت روما بتدمير القدس ومعبدها عام ٧٠، اختفت كنيسة القدس تماما عن الوجود، وظلت الكنيسة الأممية المصرية تنشر الفكر المسيحى فى العالم كله، حتى أساقفة روما تعلموا الفكر المسيحى عن مصر.

إلا أن الأساقفة الرومان ادعوا أن القديس بطرس هو الذى أقام كنيستهم، واختلقوا رواية تقول إن بطرس تمكن من النجاة من الموت بمعجزة بعد أن وضعه الملك أنتيباس فى السجن وأمر بإعدامه - قبل نهاية النصف الأول من القرن الأول - وسافر إلى روما ليسلم أساقفتها السلطة التى أعطاها له السيد المسيح، لخلافته على الأرض. وحتى يمكننا فهم المحاولات التى قامت بها روما للقضاء على نفوذ الإسكندرية ليحل الفاتيكان مكان السرابيوم فى قيادة العالم المسيحى، علينا أولا التعرف على تاريخ ظهور الجماعات المسيحية الأولى فى كل من فلسطين ومصر.

انقسام اليهود إلى فرق:
الصدوقيين والفريسيين والعيسويين

بعد عودة اليهود من بابل، نجح الكهنة فى جمع الناس على الديانة اليهودية التى أقاموها استنادا إلى تفسيرهم الخاص لتوراة موسى، والذى على أساسه أعادوا صياغة كتبهم. ومع سماح الفرس لليهود بإعادة بناء معبد اليبوسيين بالقدس، أصبح هذا المعبد هو المقر الرئيسى

لكهنة اليهود، يمارسون فيه شعائرهم. قامت ديانة الكهنة اليهودية على فكرة وحدانية الرب ورفض عبادة الأصنام أو أى أرباب أخرى، أما الاعتقاد بقيامة الأموات والحساب بعد الموت، فليس له وجود فى هذه الديانة. وكانت العبادة اليهودية التى أقامها الكهنة، تقوم على طقوس معينة ـ أهمها الذبح ـ يقوم بها الكهنة فى المعبد كل يوم، وبعضها يتم فى أيام السبت وفى الأعياد. وكان عامة اليهود مطالبين بتقديم ضريبة خاصة للمعبد غير تلك التى يقدمونها إلى السلطات صاحبة السيطرتين السياسية والعسكرية، ولأن المناصب الكهنوتية كانت وقفا على عائلات بعينها، أصبح الكهنة يمثلون طبقة خاصة فى المجتمع، استطاعت أن تحصل على ثروات كبيرة. وكونت جماعة الكهنة فى تلك الفترة طائفة عرفت باسم «الصدوقيين» ـ صدوقيم ـ والتى كانت تضم التجار والأرستقراطيين عامة، وكانوا هم المتحكمين فى الشعب عن طريق تحكمهم فى العبادة. فليس هناك صلوات أو طقوس للعبادة اليهودية يمكن أن يقوم بها الأفراد بأنفسهم ـ سواء فى منازلهم أو فى أى معبد آخر ـ ويصبح الطريق الوحيد لمن يريد العبادة هو الحضور إلى معبد القدس وتقديم القرابين والعطايا إلى الكهنة. وكان الصدوقيون يعتقدون بأن الروح تموت مع فناء الجسد، وهم يقومون بتطبيق النصوص التوراتية تطبيقا حرفيا ولا يرون ضرورة استخدام العقل والمنطق فى تفسيراتهم. وعلى ذلك فإن الصدوقيين لم يؤمنوا لا بخلود الروح ولا بالبعث بعد الموت أو الحساب، ولا بوجود كائنات من الجن والملائكة.

وعلى النقيض من الصدوقيين كان العيسويون يؤمنون بالملائكة وخلود الروح، واسم الشخص الذى ينتمى إلى هذه الجماعة فى اللغة اليونانية ـ التى وجد بها فى هذه الكتابات ـ هو «إيساوى»، الذى احتار الباحثون فى معرفة أصله. ولكن الأمر ليس بهذه الصعوبة، حيث إن الكاتب عادة ما يحاول استخدام الحروف التى تعطى أقرب النطق إلى الصحة، عند كتابة اسم علم بلغة مختلفة. إلا أن عدم احتواء اللغة الجديدة لحرف مشابه للحرف الموجود فى اللغة الأصلية للاسم يجعله يستخدم أقرب الحروف فى اللغة الجديدة للدلالة عليه. ومن الحروف التى توجد فى اللغات السامية ولا توجد فى اللغات الغربية حرف «العين»، لذلك فإن الغربيين يسموننا «أربز» وهو أقرب ما فى لغتهم للدلالة على «عرب». ونحن لو نظرنا للفظة اليونانية «إيساوى» لوجدنا أن حرف العين كان هو الحرف الأول هو الذى استخدمت الألف للدلالة عليه، فتكون الكلمة الأصلية «عيساوى» أو «عيسوى» إذا ما تخلصنا من ألف المد المستخدمة هنا كحركة، وعلى ذلك يكون اسم الجماعة «عيسويين».

كانت طائفة العيسويين موجودة فى فلسطين، حيث عاشت فى المناطق القريبة من الجزء الشمالى الغربى للبحر الميت غربى مدينة القدس. وبحسب الكتابات القديمة فإن هؤلاء العيسويين، وإن كانوا يعتبرون يهودا، إلا أنهم كانوا يختلفون عنهم فى كونهم يؤمنون بخلود الروح ويؤمنون بالحساب فى الآخرة. وهم لا يشتركون مع باقى اليهود فى تقديم الذبائح بالمعبد، وكان عددهم لا يزيد عن أربعة آلاف. وينقسم العيسويون إلى قسمين، قسم يعيش مثل الرهبان لا

يتزوجون، وقسم آخر يتزوج. ولكنهم جميعا يحاولون الابتعاد عن الشهوات وملذات الحياة، ويتنازلون عن أموالهم وأملاكهم للجماعة، فليس بينهم غنى ولا فقير، إذ يشتركون جميعا فى ملكيتهم الجماعية. وهم يعتبرون أن الوجود المادى للإنسان والمتمثل فى الجسد، هو وجود مؤقت فان، وإنما الحياة الحقة لديهم هى الحياة الروحية، ولذلك فهم لا يخشون الموت بل يرحبون به. ويرتدى العيسويون رداء أبيض، وهم يستيقظون مبكرا حتى يؤدوا الصلاة عند الفجر، ثم يذهبوا إلى أعمالهم التى هى عادة تتعلق بفلاحة الأرض. وكانوا يقومون بصلاتهم الثانية عند غروب الشمس قبل أن يجلسوا لتناول الطعام الذى يتكون من الخبز ونوع واحد من المأكولات. ويعتبر التطهر بالماء قبل الصلاة من أهم العادات التى حرصوا عليها. ولم يكن من السهل الانضمام إلى جماعة العيسويين، فكان الراغب فى الانتماء إليهم يوضع أولا تحت الاختبار مدة عام، فإن ثبت صلاحه سمح له بعامين آخرين يشارك أثناءهما فى بعض الطقوس فقط، فلا يصبح عضوا كاملا إلا بعد مرور ثلاث سنوات.

وكان العيسويون يقضون معظم الليل فى قراءة كتبهم المقدسة، والتى تتضمن - إلى جانب التوراة - كتب الأنبياء، أهمها سفر أشعيا. وهم يفسرون النصوص تفسيرا مجازيا وليس حرفيا، ولذلك لا يفهم مغزى كلامهم إلا من اطلع على أسرار تعاليمهم. كما يحرمون على أعضائهم القسم إلا قسما واحدا عند قبولهم فى الجماعة، وهو قسم على عدم البوح بأسرارهم. ومن أهم تلك الأسرار كانت أسماء الملائكة التى كان عليهم حفظها، ولم يكن باقى اليهود يعتقدون

بالملائكة. إذ كان هناك خلاف جوهرى بين العيسويين والكهنة الصدوقيين، مما جعلهم ينغلقون على أنفسهم فى سرية خوفا من عقاب الكهنة. ولم يشارك العيسويون فى طقوس المعبد، حيث كانوا ينظرون إلى كهنته على أنهم ممثلون للشيطان فى عصرهم.

وأدى الصراع بين العيسويين والصدوقيين إلى ظهور طائفة ثالثة لها اعتقادات وسط بين الجماعتين عرفت باسم «الفريسيين»، يعتقدون بعدم فناء الروح بعد الموت، وإن لم يعتقدوا فى قيامة الأموات. وكان الفريسيون يعتقدون بالقدرية - وهو أن كل شىء يحدث لنا إنما هو مكتوب ولا يمكن تغييره - ولكنهم كانوا أيضا يعتقدون بحرية الإرادة الإنسانية فى الاختيار، ويقولون بأن الرب يساعد من يسير فى طريق الخير، أما من يسلك طريق الشر فيترك وحده لاختياره هو. وعلى ذلك فهم كانوا يقولون بأن أرواح الأشرار ستوضع فى سجن أبدى بعد الموت تعذب فيه إلى الأبد، أما أرواح الأخيار فهى فى رأيهم تعود إلى الحياة فى جسد آخر، أى أنهم كانوا يؤمنون بفكرة الحلول.

ومحاولة منهم فى تحدى السيطرة الاحتكارية للصدوقيين على العبادة، راحوا يبنون ال «سيناجوج» أى المعبد اليهودى فى أماكن عديدة، ويقومون هم بالإشراف على العبادة فيه، منادين بأنه إذا كان الرب موجودا فى كل مكان، أصبح من الممكن لكل الناس الوصول إليه من أى مكان، وليس من معبد القدس بالذات. وكانت هذه هى أول خطوة لإضعاف سيطرة الكهنة وظهور طائفة الأحبار الذين أصبحوا - مثل الفقهاء فى النظام الإسلامى - يستندون فى سلطتهم على علمهم ومعرفتهم، وليس على المركز الكهنوتى. وقال الفريسيون بأن الرب قد

أعطى موسى إلى جانب التوراة المكتوبة، شريعة شفهية وصلت إليهم عن طريق تداول الأجيال ـ مثل الأحاديث الشريفة عند المسلمين ـ كما أنهم استخدموا العقل والمنطق فى تفسيرهم للنصوص، حيث قالوا إن كل زمان له متطلباته فيصبح جوهر القانون هو المطلوب تنفيذه وليس شكله وحرفيته. ومن أمثلة الحالات التى طبقوا فيها هذه الطريقة كانت قاعدة «العين بالعين»، فهم قد توصلوا إلى أن هذه القاعدة لم تعد فى زمانهم تتطلب بالضروة قتل الجانى وإنما قد تتحول إلى تعويض المجنى عليه. وبسبب هذه الأفكار ذات الطابع الليبرالى، استطاع الفريسيون تحقيق شعبية كبيرة ومنازعة سلطة الصدوقيين والكهنة، إلا أنهم يشتركون مع الصدوقيين فى فكرتهم عن المسيح ودوره. فقد كان اليهود ـ وما زالوا ـ منتظرين مسيحا آخر غير عيسى، يصبح ملكا عليهم ويحكمهم فى أبدية عندما يسيطرون على باقى الأمم.

وكان للعثور على «مخطوطات البحر الميت» فى أعقاب الحرب العالمية الثانية أهمية بالغة فى الكشف عن طبيعة العلاقة التى كانت قائمة بين الاعتقادات اليهودية والفكر المسيحى عند بداية التاريخ الميلادى منذ حوالى عشرين قرنا مضت. ولقد غيرت هذه المخطوطات الكثير من الأفكار التى كنا نعرفها سابقا بخصوص علاقة المسيحيين الأوائل بكهنة معبد القدس. وبسبب احتواء بعض مخطوطات البحر الميت على معلومات تخالف ما كنا نعرفه حتى الآن، فإن جزءا كبيرا مما تم العثور عليه فى كهوف قمران من مخطوطات لا يزال ممنوعا من النشر حتى الآن، بعد مرور ما يقرب من النصف قرن على العثور عليها.

تم العثور على هذه المخطوطات مصادفة فى عام ١٩٤٧ فى فترة كان فيها كل من العرب واليهود مشغولين بالاستعداد لحرب ١٩٤٨ . فبينما كان فتى من قبيلة التعامرة يرعى غنمه فى منطقة خربة قمران ـ فى الجزء الشمال الغربى للبحر الميت ـ سقطت إحدى غنماته فى كهف مسدود، وعندما نزل وراءها وجد نفسه محاطا بجرار من الفخار، فاستدعى بعض أفراد قبيلته لنقلها، وتبين أن بداخلها سبع مخطوطات ملفوفة بقماش من الكتان. وبالرغم من حالة الحرب التى كانت سائدة فى المنطقة فى تلك الفترة، إلا أن «العازار سوكينيك» الأستاذ فى الجامعة العبرية بالقدس علم بأمرها، فقام بشراء ثلاثة منها لحساب جامعته، ثم قام ابنه «إيجال يادين» ـ الذي أصبح قائدا فى الجيش الإسرائيلى ـ بشراء المخطوطات الأربع الباقية لحساب نفس الجامعة، وهكذا وقعت المجموعة الأولى من المخطوطات التى عثر عليها فى أيدى الإسرائيليين منذ البداية. إلا أن السلطات الأردنية قامت بتنظيم عمليات للبحث عن المخطوطات، وتمكنوا من العثور على كمية كبيرة منها، سقطت جميعها فى يد السلطات الإسرائيلية بعد حرب يونيو ١٩٦٧ . وكانت اللغة التى استعملت لكتابة المخطوطات هى العبرية والآرامية، وكذلك اليونانية فى بعض الأحيان. ووجد أن هذه النصوص تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- كتب توراتية تتضمن نسخا من جميع كتب العهد القديم ـ عدا سفر أستير ـ يتفق بعضها مع النص العبرى المازورى الذى كتب فى بابل والذى تستخدم ترجمته الآن لدى جميع الطوائف اليهودية ومعظم

الطوائف المسيحية، ويتفق البعض الآخر مع الترجمة اليونانية المعروفة بـ «النص السبعيني» الذى كتب فى الإسكندرية والذى استعمله يهود المهجر وجميع الكنائس المسيحية حتى القرن العاشر الميلادى، بينما يختلف البعض مع كل من هذين النصين. ووجد بينهما ما يتفق مع التوراة التى يستخدمها أهل السامرة... وهكذا تبين أنه ـ خلال القرن الثانى قبل الميلاد ـ كان هناك أكثر من روايتين لكتب العهد القديم، وإنه وإن كانت غالبية الخلافات الموجودة بين هذه النصوص ما هى إلا خلافات شكلية بسيطة، إلا أن هناك بعض الخلافات الجوهرية وبعض الزيادات أحيانا.

- وهناك طائفة من الكتب التى يسمونها «أبو كريفا» أى أنها كتب دينية تحتوى على قصص دينية، ولكن الأحبار الذين اجتمعوا بالقرب من يافا عند نهاية القرن الميلادى الأول لاختيار ما يدخل فى العهد القديم ومالا يدخل من كتب، لم يعترفوا بشرعيتها، وإن كان بعضها قد وجد فى النص اليونانى مثل أسفار أولاد يعقوب الاثنى عشر.

- أما النوع الثالث من النصوص التى تم العثور عليها فى كهوف قمران، فهو يتضمن الكتابات التى تتعلق بجماعة العيسويين أنفسهم التى احتفظت بهذه الكتب، فهناك من الكتابات ما يبين النظام الذى تسير عليه الجماعة، وتضم اللائحة التى تحتوى على شروط الانضمام إلى الجماعة وطريقة السلوك السليم والطهارة، وتبين أنواع العقاب الذى يمكن توقيعه على من يخرج من قواعدهم. ويتفق غالبية الباحثين الآن على أن جماعة قمران هذه

كانت جزءا من طائفة العيسويين الذين ورد ذكرهم فى كتابات المعاصرين لهم من الكتاب، أمثال الكاتب السكندرى «فيلو جوداياس» واليهودى «فليفيوس يوسيفوس» خلال القرن الميلادى الأول. وبحسب ما جاء فى كتابات الجماعة، فإن طائفتهم تكونت عندما قرر الأعضاء الأوائل أن ينفصلوا عن يهود المعبد - حيث اعتبروا كهنته فاسقين مزورين للحقائق - وهاجروا للحياة فى منطقة قمران. وواضح أن تفسيراتهم لكتب العهد القديم - وحتى لكتب توراة موسى الخمسة نفسها - تختلف اختلافا جوهريا فى بعض الحالات عن تفسيرات الكهنة اليهود، ولذلك فهم كانوا يتعبدون وحدهم ولا يشتركون فى طقوس معبد القدس.

كانت الجماعة تؤمن - بعكس الاعتقادات اليهودية - بأن الإنسان له روحان، «روح الحق» و «روح الانحراف» وأن هناك صراعا مستمرا داخل الإنسان بين هاتين القوتين. كما أن البشر - فى رأيهم - يخضعون لصراع بين قوتين روحيتين خارجيتين، الخير الذى يتمثل فى «أمير النور» والشر الذى يتمثل فى « أمير الظلام»، وأن الإنسان يخضع فى حياته على هذه الأرض لأمير الظلام الذى يحاول دائما أن يغريه على الانحراف. وعلى ذلك فهم يرون أن على الإنسان أن يقيم حياته على أساس مقاومة الشر، وأن من ينجح فى ذلك سيكافأ من الرب فى النهاية. فبحسب ما جاء فى مخطوطة «حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام» نجد أنهم كانوا يعتقدون بحتمية الموت وحتمية البعث فى نهاية الأيام (يوم القيامة)، حيث يقولون إن معلمهم الأول - والذى يطلقون عليه لقب «معلم الصدق» أو «المعلم الصديق» - الذى ينتمى إلى سلالة

الملك داود، والذى مات على يد «الكاهن الشرير»، سوف يبعث إلى الحياة ليقودهم من جديد فى آخر الأيام. ولكن الشر سوف يسيطر قبل أربعين عاما من القيامة فيأتى معلمهم ـ والذى يسمى هنا «أمير النور» ليصارع الكاهن الشرير ـ فى معركة ذات أبعاد روحية يقضى فيها النور على الشر ويحرر البشر نهائيا من سلطته عليهم. وكانت جماعة قمران تؤمن بوجود كائنات روحية ـ غير بشرية ـ فى الملكوت الإلهى، ألا وهى الملائكة، كما آمنوا بأن بعض الناس الصالحين يصبحون من القديسين بعد موتهم. كل هذه الاعتقادات ـ وإن وجدت فى الديانة المسيحية بعد ذلك ـ إلا أنه لم يكن لها وجود فى الفكر اليهودى القادم من بابل.

يوحنا المعمدان

كانت السنوات الأولى للعصر المسيحى يسودها الترقب وانتظار حدث كبير يأتى بالخلاص للجماهير، وأصبحت فترة بداية التاريخ الميلادى منذ ألفى عام مضت، حبلى بتوقعات الخلاص المسيحية. وعندما خرج يوحنا المعمدان إلى نهر الأردن فى العشرينات من القرن الأول للميلاد ـ وكان واحدا من جماعة العيسويين ـ يبشر بنهاية الأيام ومجئ المخلص ويطلب من اليهود العمادة بالماء للخلاص من الذنب الذى ورثوه عن أجدادهم، فإن هذه الدعوة انتشرت بينهم مثل النار فى الهشيم، مما اضطر الملك هيرود أنتيباس إلى قتل المعمدان خوفا من أن يؤدى اتباع الناس لدعوته إلى ثورة سياسية. وعلى ذلك؛ فنحن نجد أن إنجيل متى يقدم المعمدان بنفس الكلمات التى وردت فى سفر

النبى أشعيا «وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية، قائلا: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات». وكان المعمدان - وإن اتفق مع العيسويين فى اعتبار كهنة المعبد وأتباعهم يمثلون الشيطان - إلا أنه كان يؤمن بإمكان المغفرة لمن طلبها منهم.

جاء المعمدان إلى اليهود وطلب منهم الاستغفار حتى لا يعاقبوا يوم القيامة، وكان التطهر بالماء هو علامة هذا الاستغفار، فكان يعمدهم بالماء. ويقول يوسيفوس إن جماهير كثيرة من اليهود آمنت بالمعمدان وتبعت دعوته، حتى إن الملك «أنتيباس» بن هيرودس، خشى من شعبية المعمدان التى قد تجعله يقوم بثورة سياسية، فأمر بالقبض عليه وتم وضعه فى سجن فى بلدة «ماخيروس» شرقى البحر الميت، ثم تم قتله هناك. بينما تقول قصة الأناجيل إن أنتيباس قتل المعمدان بسبب اعتراضه على زواجه من «هيروديا» التى كانت زوجة أخيه، حيث كان لها ابنة - هى سالومى - من هذا الزواج، وكانت التقاليد تمنع الزواج فى هذه الحالة. لذلك فإن سالومى طلبت من الملك أن يعطيها رأس المعمدان ثمنا لموافقتها على أن ترقص أمامه.

العارفون أهل السراب

وفى مصر ظهرت طائفة فلسفية هامة عند بداية القرن الأول للميلاد يطلق عليها بالإنجليزية اسم Gnostics التى تترجم لفظيا إلى «غنوصيين»، وإن كنت أفضل ترجمة معنى هذا الاسم إلى «العارفين». ويخبرنا «فيلو جوداياس» الفيلسوف اليهودى السكندرى بأنه - عند بداية القرن الأول الميلادى - ظهرت فى مصر جماعة دينية

جديدة كان يطلق عليها باليونانى اسم «ثيرابيوتيه» أو «أهل السراب»، تتكون من الرجال والنساء الذين رفضوا العالم المادى وما فيه من خيرات وراحوا يبحثون عن خلاص الروح. وكان «السراب» هو الاسم الذى أطلقه المصريون على أماكن عبادتهم فى العصور الأخيرة حيث أصبح «أوزوريس» حاكم الموتى وسيد العالم الآخر يسمى «سرابيس»، وحيث كانوا يدفنون البقرة المقدسة فى السرابيوم. وأصبح اسم هذه الطائفة «ثيرابيوتيه» فيما بعد يعنى «المطببون» فى اللغات الأوروپية، حيث كانوا يقومون بعلاج الناس من الأمراض البدنية والنفسية. وكان أهل السراب ـ الذين وصل عددهم إلى ما يزيد على المليون ـ يعيشون فى مصر على أطراف المدن وفى المقابر القديمة والمناطق الصحراوية، حيث يقضون وقتهم فى الدراسة والتعبد وهم صائمون. وهذه الجماعة وإن كانت غالبيتها مصرية، كانت تضم كذلك بعض اليهود والإغريق، كما انتشرت بعد ذلك إلى جميع الأمم الداخلة فى نطاق الدولة الرومانية. كانوا يقيمون الصلاة فجرا عند شروق الشمس ثم عند مغيبها ويصومون ٦ أيام كل أسبوع، فى بحثهم عن الحقيقة الروحية، وهم أقرب ما يكون إلى الجماعات الصوفية الحالية، ويطلق عليهم حديثا اسم «نوستيكس» أى «العارفين».

وقد اعتبر الأب «عيسوبيوس» أسقف مدينة قيصرية على الساحل الفلسطيني ـ وهو أول من كتب تاريخ الكنيسة خلال القرن الثالث الميلادى ـ أن جماعة السراب هذه كانت تمثل بداية المسيحية فى مصر، وإن كانت الكنيسة المصرية تعتبر أن تاريخ وصول «القديس مرقص» ـ

الذى كتب أول الأناجيل الأربعة ـ إلى الإسكندرية قبل منتصف القرن الأول، هو بداية تاريخها.

فى ديسمبر عام ١٩٤٥ عثر أحد الصعايدة مصادفة على مكتبة قبطية قديمة، كان لها أثر بالغ فى التعرف على التاريخ الأول للمسيحية. تم العثور على هذه الكتب عند جبل الطارف الذى يحتوى على ١٥٠ كهفا، كان قدماء المصريين فى الأسرة السادسة ـ قبل حوالى ٤٥٠٠ عام ـ يستخدمونها كمقابر لدفن موتاهم، ثم استخدمها الرهبان فى العصور الأولى للمسيحية، مركزا لاعتكافهم وخلوتهم.

فقد خرج محمد على السمان وأخوه خليفة يجمعان السباخ بالقرب من جبل الطارف على بعد عشرة كيلومترات شمال شرقى مدينة نجع حمادى بصعيد مصر. وفوجئ محمد السمان أثناء حفره لجمع السباخ، بظهور زلعة مدفونة تبين له عند إخراجها مدى كبرها، حيث بلغ ارتفاعها مترا. ولما هوى السمان على الزلعة بفأسه وكسرها، وجد بداخلها مجموعة من المجلدات القديمة. وحمل على السمان وأخوه خليفة المجلدات على ظهر جملهما وعادا بها إلى الدار بقرية «حمرة دوم»، وتركاها بجانب الفرن عسى أن تستخدمها أمهما فى تحمية الفرن للخبيز. إلا أن الأقدار التى حفظت هذه الكتابات أكثر من ١٥ قرنا مدفونة بين المقابر، شاءت ألا يكون مصيرها الضياع إلى الأبد فى نيران آل السمان. إذ اضطر ولدا السمان إلى الهرب بعد شهر من العثور على المخطوطات، حيث إن الشرطة كانت تطاردهما بسبب ما قاما به من الثأر لمقتل والدهما، وخوفا من عثور الشرطة على المخطوطات فى المنزل تركاها عهدة لدى القس القبطى بالمدينة.

وعندما شاهد راغب أندراوس شقيق زوجة القس، المخطوطات - وكان يعمل مدرسا في مدرسة القرية - وتبين له أنها مكتوبة بلغة قبطية قديمة، أدرك لتوه أن لها قيمة أثرية. واستعار أندراوس واحدة من المخطوطات سافر بها إلى القاهرة حيث عرضها على صديقه چورچ صبحي الذي يجيد قراءة اللغة القبطية. وأخذها صبحي بدوره وذهب إلى المتحف المصري، وقابل مديره الفرنسي اتيان دريتون. وعندما تبين لمدير المتحف مدى أهمية المخطوط أسرع بشرائه لحساب المتحف مقابل ٢٥٠ جنيها. وسرعان ما وجدت باقي المخطوطات طريقها إلى تجار «الأنتيكة» بالقاهرة طمعا في الحصول على أكبر سعر ممكن، إلا أن مصلحة الآثار حينذاك، أدركت أهمية المخطوطات وتتبعت خيوط مسيرتها إلى أن عثرت عليها وأخذتها ووضعتها في المتحف القبطي لحين تأمين المبلغ المطلوب لشرائها.

وكان الدكتور طه حسين قد أصبح وزيرا للمعارف في حكومة النحاس باشا الوفدية حينذاك، وكانت مصلحة الآثار تتبعها في ذلك الوقت. ولما علم الوزير بقصة المخطوطات أسرع بالمطالبة بتخصيص مبلغ في الميزانية الجديدة لشرائها. ولم ينتظر الوزير حتى إتمام عملية الشراء، بل أصدر أوامره بالسماح للباحثين المتخصصين في الاطلاع عليها حتى لا يضيع الوقت دون معرفة مضمونها. وعند قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، قررت الحكومة الجديدة الاستيلاء على المخطوطات بدون مقابل باعتبارها ثروة قومية. وهكذا تمكنت سلطات الآثار المصرية من الحصول على مخطوطات نجع حمادي التي تم وضعها في

المتحف القبطى بمصر القديمة. إلا أن واحدة من المخطوطات - والبالغ عددها ثلاث عشرة - كانت قد بيعت خارج مصر، حيث اشتراها معهد يونج فى مايو ١٩٥٢ لإهدائها إلى عالم النفس الشهير «كارلز جوستاف يونج» زميل سيجموند فرويد، بمناسبة عيد ميلاده. وبعد وفاة يونج - الذى كان من المتأثرين بفلسفة العارفين - تم إعادة هذه المخطوطة إلى المتحف القبطى. وتبين للباحثين أن ما تم العثور عليه فى نجع حمادى هو مكتبة كاملة تحتوى على ٥٣ نصا فى ١١٥٣ صفحة، جمعت فى ١٣ مجلدا، معظمها مكتوب باللغة القبطية.

وفى عام ١٩٥٦ دعت الحكومة المصرية إلى عقد مؤتمر فى القاهرة يضم باحثين من مختلف بلدان العالم، لوضع خطة لترجمة هذه النصوص ودراستها، ولكن الاعتداء الثلاثى على مصر فى ذلك العام حال دون انعقاد هذا المؤتمر. وعادت منظمة اليونسكو فدعت إلى مؤتمر آخر فى عام ١٩٦١، أدى إلى تشكيل لجنة عالمية للعمل. وكان أول ما تم القيام به هو عمل صور فوتوغرافية لجميع المخطوطات، ثم نشرت مجموعة الصور فى مجلد خاص صدر فى مدينة لايدن الهولندية حتى تتاح الفرصة لأكبر عدد من الباحثين فى الاطلاع عليها. تكونت بعد ذلك لجنة فى الولايات المتحدة الأمريكية - تحت رعاية عالم اللاهوت چيمس روبنسون - للقيام بترجمة النصوص، وتم الانتهاء من الترجمة الإنجليزية عام ١٩٧٥، ثم ترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية والألمانية.

وتبين أن المخطوطات القبطية تحتوى على كتابات مسيحية لبعض الجماعات التى ظهرت عند بداية القرن الميلادى الأول كانت تعرف

باسم «العارفين»، وهى تشبه إلى حد كبير جماعات الطرق الصوفية فى وقتنا الحالى. ويقول «العارفون» بازدواجية الوجود؛ الجسد والروح، الوجود والعدم، وهما فى حالة من الصراع الدائم. وهم ينشدون الوصول إلى المعرفة الحقة، والتى - فى رأيهم - ليست هى المعرفة التى يمكن الحصول عليها عن طريق التجربة والحواس، فهذه جسدية، وإنما المعرفةالحقة هى معرفة الروح الإلهية العليا عن طريق معرفة الإنسان لنفسه. ولهذا فإن العارفين كانوا هم أول من وضع أسس علم النفس، وهذا هو سر اهتمام عالم النفس جوستاف يونج بكتاباتهم. وحتى يتمكن العارفون من الوصول إلى معرفة حقيقة ذواتهم، كانوا يتنازلون عن كل أملاكهم وأعمالهم، ويخرجون إلى البرية حيث يعيشون حياة النساك العاكفين. وهم لا يأكلون إلا الخبز ولا يشربون سوى الماء، فالمعرفة الروحية تتطلب - فى اعتقادهم - إخضاع الجسد وشهواته، والوصول إلى مرحلة من الصفاء النفسى. وكانوا يقضون معظم أوقاتهم فى التعبد وترتيل الكتابات التى عندهم، أو القيام بإنشاء كتابات جديدة يقرءونها فى اجتماعاتهم الأسبوعية.

وتتضمن مكتبة العارفين التى عثر عليها بنجع حمادى عددا من الأناجيل لم تكن معروفة من قبل، إلى جانب بعض الأشعار والكتابات الفلسفية. فنحن نعرف أن «العهد الجديد» يحتوى على أربعة أناجيل منسوبة إلى متى ومرقص ولوقا ويوحنا، وهذه هى الأناجيل التى اعترفت الكنيسة بصحتها، ولكن بحسب - ما تم العثور عليه فى نجع حمادى كانت هناك أناجيل أخرى متداولة منذ القرن

الميلادى الأول وحتى القرن الرابع . من أهمها إنجيل توماس ، الذى يحتوى على أقوال للسيد المسيح بعضها موجود فى الأناجيل الأربعة السابقة وبعضها غير موجود. بينما يرجع تاريخ كتابة أناجيل العهد الجديد إلى ما بعد العام ٧٠ الميلادى ، نجد أن إنجيل توماس يعود فى أصله إلى عشرين عاما قبل هذا التاريخ وعلى هذا يصبح أقدم الأناجيل المعروفة حتى الآن ، وقيل إن «توماس» هذا يمثل الكتابة اليونانية لاسم «تحتمس» المصرى القديم .

وعندما اعتنق الإمبراطور الرومانى قسطنطين الديانة المسيحية فى القرن الرابع ، وأصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية ، زاد نفوذ كنيسة روما التى أمرت بحرق جميع الكتب التى تختلف معها فى التفسير . وكان هذا هو الوقت الذى تم فيه حرق سرابيوم بالإسكندرية وغالبية المخطوطات التى كانت بمكتبة الإسكندرية الشهيرة ، مماجعل بعض الرهبان البخوميين فى نجع حمادى يحاولون إنقاذ هذه الكتب عن طريق إخفائها فى الزلعة بين المقابر ، وظلت غير معروفة حتى عثر عليها محمد على السمان بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

الفصل العاشر

رواية هروب بطرس وتأسيس كنيسة روما

بطرس

□ ومع أننا لا نعلم بالضبط الأماكن التى تنقل فيها بطرس كارزًا أو شاهدًا ليسوع المسيح.. ومن المعتقد أيضا أنه ذهب إلى روما، والكنيسة الكاثوليكية تعتقد أنه أول أسقف لروما، ولكن الفكر البروتستانتى لا يشاطرها هذا الرأى، إذ إن بولس كان تواقا إلى الذهاب إلى رومية. ومن غير المتصور أن يذهب بولس إلى كنيسة يؤسسها بطرس... بل إن الكثيرين يعتقدون أن هذه الكنيسة لم ينشئها رسول أو تلميذ من تلاميذ المسيح الاثنى عشر.□

«رجال الكتاب المقدس - دار الثقافة (المسيحية) القس الياس مقار، ج ٢ صفحة ٨٩ - رقم الإيداع بدار الكتب ٥١٢٢ / ٨٨»

مازال التاريخ المسيحى خلال السنوات الخمسين الأولى للتقويم الميلادى، يكتنفه كثير من الغموض لدى الباحثين وعلماء الكتاب المقدس. ومن الروايات التى نجدها فى كتاب أعمال الرسل أن بولس اعتنق المسيحية، وهو فى طريقه من القدس إلى دمشق، وأنه تلقى تعاليمه عن كنيسة أورشليم. كما قيل إن سمعان ـ الذى عرف بعد ذلك باسم بطرس ـ سافر إلى روما عند منتصف القرن الأول واستشهد هناك أثناء اضطهاد الإمبراطور نيرون للمسيحيين، فى ستينات ذلك القرن.

كانت السنوات الأولى من العصر المسيحى موضع ترقب دينى كبير، إذ كان العيسويون ينتظرون عودة معلمهم وحلول آخر الأيام (يوم القيامة) الذى يتم فيه الحساب. وخرج يوحنا المعمدان فى فلسطين يطالب اليهود بقبول عمادة التوبة، والاعتراف بالخطيئة، وطبقا لما كتبه يوسيفوس فقد أوصى يوحنا اليهود «بأن يأتوا للتعميد، فالاغتسال (بالماء) سوف يكون مقبولا لديه (الرب) إذا ما استخدموه». وأكد إنجيل متى على أن المعمدان كان يعد الطريق لمجىء المسيح فى آخر الزمان: «وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية قائلا: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات. فإن هذا هو الذى قيل عنه بأشعياء النبى القائل: صوت صارخ فى البرية. أعدوا طريق الرب. اصنعوا سبله مستقيمة». (متى ٣ : ١ ـ ٣)

أثارت حركة المعمدان شحنة من الحماس وجمعت حولها من الأتباع، ما جعل الملك هيرودس أنتيباس حاكم الجليل بشمال فلسطين من ٤ ق . م . إلى ٣٩م . يتخوف من أن يصبح يوحنا بؤرة تجميع ثورى لليهود . لذا قبض عليه وسجنه ثم أعدمه بعد ذلك، ويسود الاعتقاد بأن العام الذى قتل فيه يوحنا كان عام ٢٨ . وظهر سمعان (بطرس) بعد ذلك . ومنذ ظهور سمعان (بطرس) أصبح يعتبر رئيسا للحواريين وقائدا لكنيسة أورشليم .

وكانت تعاليم سمعان (بطرس) وجماعة أورشليم تمثل خليطا من العهد القديم الذى قيل إن الرب قطعه مع إبراهيم الخليل - والذى يقضى بتختين الذكور من سلالته - والعهد الجديد الذى وعد به يوحنا المعمدان . وجاء ذكر العهد القديم فى سفر التكوين : «وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا . لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك . . . هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختتن منكم كل ذكر . . . فيكون علامة عهد بينى وبينكم»(*) . تكوين (الأصحاح : ١٧ : ٧، ١٠ - ١٢)

ومع أن الختان كان عادة مصرية قديمة، إلا أن هذا العهد قاصر على اليهود الذين يختتنون، ولم يرتبط بهذا العهد أى وعد بحياة أبدية .

أما بولس، فقد ولد لعائلة يهودية فى مدينة طرسوس بجنوب آسيا الصغرى عند بداية التقويم الميلادى، وكان يسمى فى البداية شاؤل، ثم

(*) كذلك جاء فى سفر التكوين، الأصحاح (١٧ : ١٤) : «أما الذكر الأغلف الذى لم يختتن، يستأصل من بين قومه لأنه نكث عهدى» .

سافر إلى أورشليم لدراسة التوراة على يد حبر فريسى مشهور يدعى جمالى ائيل . ويعترف بولس فى رسالته التى كتبها إلى أهل أغلاطية أنه كان يقوم باضطهاد المسيحيين فى شبابه ، خلال ثلاثينات القرن الأول .
ويصف لنا بولس كيفية تحوله من عدو لتلاميذ المسيح إلى واحد من أهم دعاته ، فى أعمال الرسل تحت عنوان «اهتداء شاؤل» :

فبينما كان سائرا فى طريقه إلى دمشق ، ظهر له يسوع على شكل نور فوقع إلى (شاؤل الذى أصبح بولس) وسمع صوتا يقول له : شاؤل! شاؤل! لماذا تضطهدنى؟ فسأل : من أنت يا سيد ، فجاءه الجواب : أنا يسوع الذى أنت تضطهده ، صعب عليك أن ترفس المناخس . فقال وهو مرتعد ومتحير : يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له الرب : قم وادخل المدينة فيقال لك ما يجب أن تفعله . الأصحاح (٩ : ٤ ـ ٦) .

وكانت هذه هى البداية التى قبل بعدها بولس العمادة المسيحية . ويؤكد بولس أنه لم يتلق تعاليمه المسيحية عن طريق كنيسة أورشليم ، ويقول إنه بعد هذه الرؤية مع المسيح ، ذهب إلى العربية حيث قضى ثلاث سنوات : «لما سر الله الذى أفرزنى من بطن أمى ودعانى بنعمته . أن يعلن ابنه فى لأبشر به بين الأمم ، للوقت لم أستشر لحما ودما . ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلى بل انطلقت إلى العربية ، ثم رجعت أيضا إلى دمشق» . (الأصحاح ١ : ١٥ : ١٧) ـ الرسالة إلى مؤمنى غلاطيا .

قال بعض المفسرين : إن الموقع الذى لجأ إليه بولس ليقضى خلوته فى العربية كان فى الصحراء السورية بالقرب من دمشق ، إلا أن بولس نفسه يذكر فى ذات الرسالة ، أن جبل سيناء يقع فى العربية ، وهذا يوحى

بالموقع الذى تلقى فيه موسى الألواح، والذى أقيم عليه بعد ذلك دير سانت كاترين - (الأصحاح ٤ : ٢٤ - ٢٥).

كان جبل سيناء يعتبر بمثابة مقصدا للحجاج منذ زمن موسى، واستمر مقصداً للحجاج المسيحيين الذين كانوا يأتون إليه من جميع أنحاء العالم، حتى نهاية القرن الرابع الميلادى عندما قررت روما توجيه الحج إلى فلسطين بعد بناء كنيسة القيامة. وكانت منطقة جنوب سيناء تدخل فى تلك الحقبة فى تكوين سياسى يضم كذلك جنوب فلسطين وشرق الأردن والصحراء السورية شرقى دمشق، يسمى العربية، ويحكمه ملوك الأنباط من عاصمتهم فى البتراء. كما أن المنطقة الواقعة عند سفح جبل سيناء كانت قد أصبحت ملاذا للرهبان والمتأملين الذين يأتون من مصر ومن جميع أنحاء العالم، وأصبحت - مثلها فى هذا مثل باقى أجزاء الأرضى المصرية - ملجأ للعارفين من جماعة الثرابيوتيه، ومن السهل التعرف على المدرسة التى تلقى بولس عنها دراسته المسيحية خلال ثلاث سنوات قضاها عند جبل سيناء، عندما ندرك وجود تطابق بين التعاليم التى بشر بها بولس وبين تعاليم جماعة العارفين المصرية. ومكث بولس فى العربية بسيناء مدة ثلاث سنوات، وهى المدة الى يجب قضاؤها لمن يريد التأهل والحصول على «سر» الطائفة. وقد وردت كلمة «سر» بمعنى (Mystery) ١٧ مرة فى رسائل بولس الرسول. ومن أمثال هذه الحالات ما ورد فى رسالته إلى أهل رومية: «وللقادر أن يثبتكم، حسب إنجيلى والكرازة بيسوع المسيح حسب إعلان السر الذى ظل مكتوما فى الأزمنة الأزلية». (الأصحاح ١٦ : ٢٥).

واللقاء الروحى الذى حدث بين بولس وبين مجد السيد المسيح، هو دليل على أن بولس قد وصل إلى درجة عالية داخل جماعة

العارفين. وهذا ما يفسر لنا السبب وراء اهتمام الأناجيل القبطية التى عثر عليها فى نجع حمادى بشخصية بولس ورسالته. وروى بولس كيف أنه بعد عودته من العربية، زار أورشليم لمدة قصيرة وهو فى طريقه إلى موطن ميلاده فى آسيا الصغرى بشمال سورية. وفى ذلك الوقت كان هناك مجتمع كبير من المسيحيين الأميين فى إنطاكية، التى كانت عاصمة لإقليم سورية حينذاك. فانضم بولس إلى برنابا معلم هذا المجتمع، وشاركه بعد ذلك فى رحلاته التبشيرية بين الأمم خارج سوريا، فقام بثلاثة رحلات تبشيرية بدأها بزيارة إلى قبرص.

الصراع بين بولس وبطرس

بدأ الصراع بين كنيسة أورشليم اليهودية التى تزعمها بطرس، وبين كنيسة إنطاكية التى أقامها بولس بعد عودته من رحلته التبشيرية الأولى. إذا أصرت كنيسة أورشليم على ضرورة تحول الراغبين فى اعتناق المسيحية إلى الديانة اليهودية أولا وقبولهم للختان، حتى يمكن انضمامهم إلى الكنيسة. واعترض بولس على ذلك وقال إن المسيح جاء ليخلص جميع الأمم، ولم يأت لليهود وحدهم.

مواجهة بولس لبطرس فى أنطاكيه

«ولكن لما جاء بطرس إلى مدينة أنطاكيه، قاومته وجهًا لوجه لأنه كان يستحق أن يُلام... كان بطرس يأكل مع الإخوة الذين من الأمم ولكن لما أتى أولئك، انسحب وعزل نفسه خوفًا من أهل الختان... وجاراه فى ريائه باقى الأخوة الذين من اليهود... فلما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة توافق حق الإنجيل، قلت لبطرس أمام الحاضرين

جميعًا : «إن كنت وأنت يهودى تعيش كالأمم لا كاليهود، فكيف تخبر الأمم أن يعيشوا كاليهود؟» ـ رسالة بولس إلى مؤمنى غلاطية (٢ : ١١ ـ ١٥).

ثم تم الاتفاق على أن يصبح بطرس هو رسول المسيحيين اليهود، ويصير بولس رسولا إلى باقى الأمم.

ولم يكن الاختلاف بين بطرس وبولس يتوقف عند حصر الأول دعوته على المجتمع اليهودى وانفتاح الثانى على الأمم، إذ كان بولس هو أول من قدم فكرة البر بالإيمان :

«إذ علمنا أن الإنسان لا يتبررّ على أساس الأعمال المطلوبة فى الشريعة، بل فقط بالإيمان بيسوع المسيح، آمنا نحن أيضا بالمسيح يسوع، لنتبرر على أساس الإيمان به، لا على أساس أعمال الشريعة، لأنه على أعمال الشريعة لا يبرر أى إنسان. ولكن، إن كنا ونحن نسعى أن نتبرر فى المسيح، قد وجدنا خاطئين أيضا، فهل يكون المسيح خادما للخطيئة؟ حاشا! فإذا عدت أبْنِى ما قد هدمته، فإنى أجعل نفسى مخالفا. فإننى، بالشريعة، قد مُتّ عن الشريعة، لكى أحيا لله. مع المسيح صلبت، وفيما بعد لا أحيا أنا بل المسيح يحيا فىّ. أما الحياة التى أحياها الآن فى الجسد، فإنما أحياها بالإيمان فى ابن الله، الذى أحبنى وبذل نفسه عنى. إنى لا أبطل فاعلية نعمة الله، إذ لو كان البر بالشريعة، لكان موت المسيح عملا لا داعى له.

البر بالإيمان

يا أهل غلاطية الأغبياء! من سحر عقولكم، أنتم الذين قد رسم أمام أعينكم يسوع المسيح وهو مصلوب؟ أريد أن أستعلم منكم هذا

الأمر فقط : أعلى أساس العمل بما فى الشريعة نلتم الروح ، أم على أساس الإيمان بالبشارة؟ أإلى هذا الحد أنتم أغبياء؟ أبعدما ابتدأتم فى الروح تجعلون كاملين فى الجسد؟ وهل كان اختباركم الطويل بلا جدوى ، إن كان حقا بلا جدوى؟ فذاك الذى يهبكم الروح ، ويجرى معجزات فى ما بينكم ، أيفعل ذلك على أساس أعمال الشريعة أم على أساس الإيمان بالبشارة؟ كذلك «آمن إبراهيم بالله ، فحسب له ذلك برا» . فاعلموا إذن أن الذين هم على مبدأ الإيمان هم أبناء إبراهيم فعلا . ثم إن الكتاب ، إذ سبق فرأى أن الله سوف يبرر الأمم على أساس الإيمان ، بشر إبراهيم سلفا بقوله : «فيك تبارك جميع الأمم!» إذن الذين هم على مبدأ الإيمان يباركون مع إبراهيم المؤمن . أما جميع الذين على مبدأ أعمال الشريعة ، فإنهم تحت اللعنة ، لأنه قد كتب : «ملعون كل من لا يثبت على العمل بكل ما هو مكتوب فى كتاب الشريعة!» أما أن أحدا لا يتبرر عند الله بفضل الشريعة ، فذلك واضح ، لأن «من تبرر بالإيمان فبالإيمان يحيا» . ولكن الشريعة لا تراعى مبدأ الإيمان ، بل «من عمل بهذه الوصايا ، يحيا بها» .

إن المسيح حررنا بالفداء من لعنة الشريعة ، إذ صار لعنة عوضا عنا ، لأنه قد كتب : «ملعون كل من علق على خشبة» ، لكى تصل بركة إبراهيم إلى الأمم فى المسيح يسوع ، فننال عن طريق الإيمان الروح الموعود» . الرسالة إلى مؤمنى غلاطية (٢ ، ٣ : ١٦ ـ ١٥) .

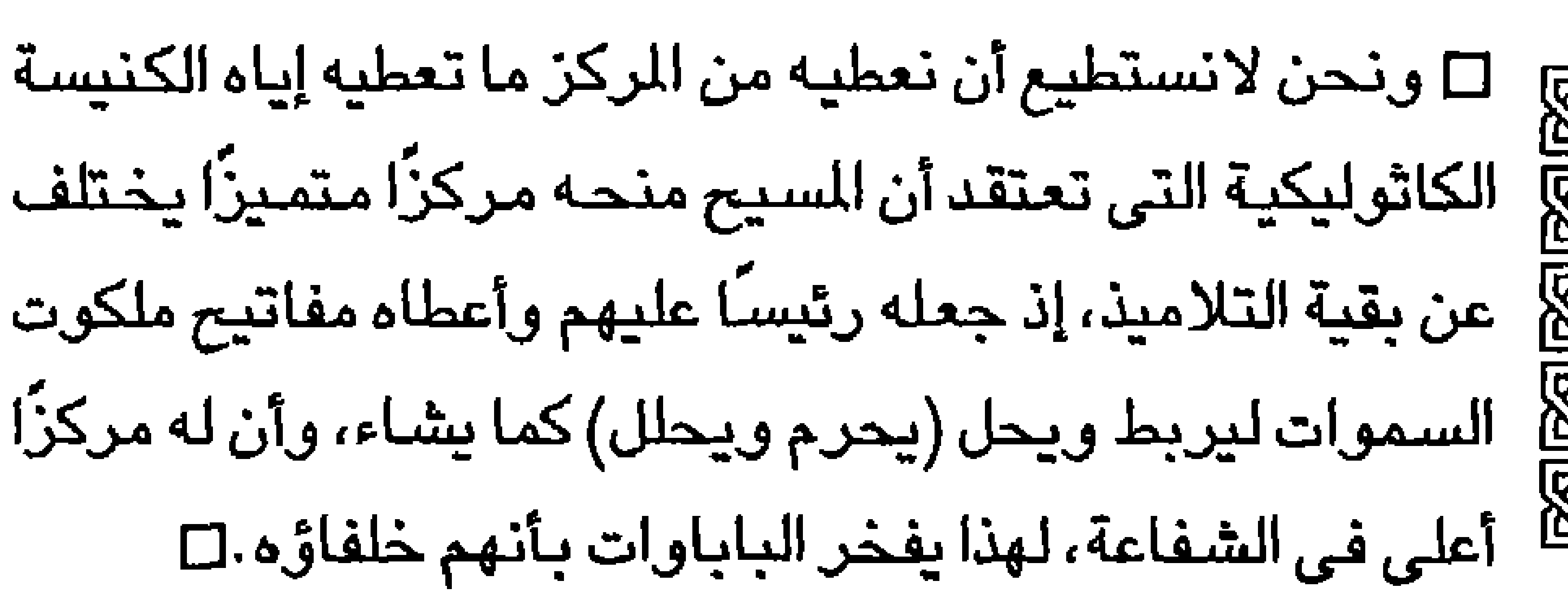
كان النبى أشعيا قد ذكر فى القرن السادس قبل الميلاد أن «العبد المعذب» ، قد عاش وواجه التعذيب وتم تقديمه كأضحية ، وتكلم كذلك عن عودته بعد موته . إلا أن فكرة البعث والقيامة من بين الأموات كانت

عند أشعيا قاصرة على قيامة العبد المعذب وحده . وتبعه العيسويون فى ذلك فكانوا ينتظرون عودة معلمهم الصديق ، بينما لم يعتقدوا فى قيامة باقى البشر . كما أن بولس وضع لاهوتية الصليب . إلا أن الصليب الذى تحدث عنه بولس لم يكن هو الصليب الرومانى الذى يستخدم لعقاب المجرمين، بل هو الصليب المصرى «عنخ» - مفتاح الحياة - الذى استخدمه المصريون القدماء منذ بداية التاريخ ، للدلالة على الحياة الأبدية . بل إن هذا الصليب المصرى هو الذى استخدمته جميع الجماعات المسيحية الأولى حتى فى روما نفسها ، إلى نهاية القرن الرابع الميلادى . ولم يظهر الصليب الرومانى إلا بعد حرق معبد السرابيوم المصرى ، عندما قامت روما بإنكار الدور المصرى فى المسيحية .

الفصل التاسع

القديس بطرس وبولس الرسول

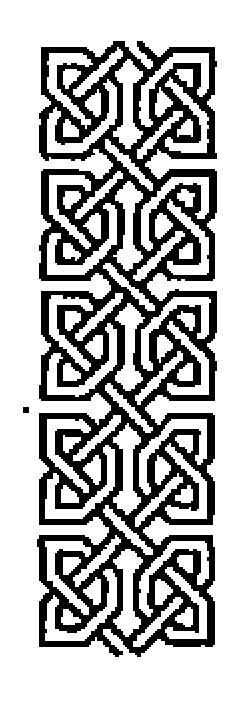
بطرس



□ ونحن لانستطيع أن نعطيه من المركز ما تعطيه إياه الكنيسة الكاثوليكية التى تعتقد أن المسيح منحه مركزًا متميزًا يختلف عن بقية التلاميذ، إذ جعله رئيسًا عليهم وأعطاه مفاتيح ملكوت السموات ليربط ويحل (يحرم ويحلل) كما يشاء، وأن له مركزًا أعلى فى الشفاعة، لهذا يفخر الباباوات بأنهم خلفاؤه.□

«رجال الكتاب المقدس - دار الثقافة (المسيحية) القس الياس مقار، ج ٣ صفحة ٧٣ - رقم الإيداع بدار الكتب ٥١٢٢ / ٨٨»

بولس



□ كان بولس رغم جبروته العلمى، أحمق الحمقى وأجهل الجاهلين، حتى قضى فى العربية ثلاث سنوات يعيد الدراسة ويجد المعرفة، ويدرك كلمة الله فى النور الصحيح، وخرج على العالم والتاريخ والأجيال بالروائع الإلهية، رسائل بولس الخالدة إلى الأبد.□

«رجال الكتاب المقدس - دار الثقافة (المسيحية) القس الياس مقار، ج٣ صفحة ١٢١ - رقم الإيداع بدار الكتاب ٨٣٧٦/ ١٩٩١».

وقد وردت قصة فى كتاب أعمال الرسل توحى بأن بطرس تم إعدامه قبل عام ٤٤ ميلادية :

«وفى ذلك الوقت مد هيرودوس الملك يديه ليسىء إلى أناس من الكنيسة . فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف . وإذ رأى أن ذلك يرضى اليهود ، عاد فقبض على بطرس أيضا . وكانت أيام الفطير (عيد الفصح)، ولما أمسكه وضعه فى السجن مسلما إياه إلى أربعة أرابع (١٦) من العسكر ليحرسوه ، ناويا أن يقدمه بعد الفصح إلى الشعب . فكان بطرس محروسا فى السجن . وأما الكنيسة فكانت تصير منها صلوات بلجاجة إلى الله من أجله» . (الأصحاح الثانى عشر : ١ ـ ٥)

وبعد أن عرفنا أن بطرس كان فى السجن بانتظار إعدام فى اليوم التالى ، إذا بالقصة تخبرنا بعد ذلك بهربه من السجن عن طريق معجزة :

«ولما كان هيرودس مزمعا أن يعدمه ، كان بطرس فى تلك الليلة نائما بين عسكريين مربوطا بسلسلتين . وكان قدام الباب حراس يحرسون السجن . وإذا ملاك الرب أقبل ونور أضاء فى البيت . فضرب جنب بطرس وأيقظه قائلا قم عاجلا . فسقطت السلسلتان من يديه . وقال له الملاك : تمنطق والبس نعليك . ففعل هكذا . فقال له : البس رداءك واتبعنى . فخرج يتبعه . وكان لا يعلم أن الذى جرى بواسطة الملاك هو حقيقى بل ظن أنه ينظر رؤيا . فجازا الحرس الأول والثانى وأتيا إلى باب

الحديد الذى يؤدى إلى المدينة فانفتح لهما من ذاته، فخرجا وتقدما زقاقا واحدا وللوقت فارقه الملاك». (الأصحاح الثانى عشر: ٦ ـ ١٠)

ومن الواضح أن معجزة هرب بطرس(*) هى إضافة متأخرة للنص، ليس لها دلالة تاريخية مباشرة. فنحن نجد أن أقدم نص عثر عليه لكتاب أعمال الرسل ـ وهو النص السكندرى ـ ليس به ذكر لمعجزة هرب بطرس من السجن، فى الليلة السابقة لإعدامه. فهذا الجزء غير موجود فى النص القديم، كما أننا لا نعود نسمع شيئا عن بطرس بعد هذه الحادثة. وبينما يحكى لنا كتاب أعمال الرسل قصة سفر بولس إلى روما بالتفصيل، فهو لا يعطينا ولو إشارة بسيطة لوجود بطرس فى هذه المدينة. وهكذا يتضح عدم وجود أى دليل على أن سمعان الذى يدعى بطرس قد رأى روما فى حياته.

إلا أن أساقفة روما رغبة منهم فى الحصول على شرعية تبرر فرض سيطرتهم على باقى الكنائس المسيحية فى العالم، افتعلوا رواية تقول بأن بطرس جاء إلى روما وسلم أساقفتها التفويض الذى قيل إن السيد المسيح منحه له، كى يخلفه فى قيادة الكنيسة. ولما كان الرومان قد حطموا مدينة القدس عام ٧٠، واختفت كنيسة القديس بطرس فى أورشليم تماما بعد ذلك، لم يعد هناك من ينازع كنيسة روما فى هذا

(*) لذلك هناك من يتساءل: أما كان أولى أن تتم مثل هذه المعجزة ليوحنا المعمدان الذى قال عنه المسيح: لم يظهر بين من ولدتهن النساء أعظم من يوحنا المعمدان. إنجيل متى، (الأصحاح ١١ : ١١) أو حتى تتم للمسيح نفسه، والذى تم ـ طبقا للأناجيل ـ صلبه.

الادعاء. كما أن الأساقفة الرومان استخدموا هذه الرواية فى فرض سلطتهم داخل كنائسهم كذلك. إذ كان هناك فارق هام بين تنظيم كنيسة أورشليم اليهودية، وبين كنائس العارفين الأممية. فكانت كنيسة أورشليم تقوم على أساس من خضوع أعضاء الكنيسة إلى سلطة الأساقفة وقبول تعاليمهم بدون مناقشة. أما الكنائس التى أقامها بولس بين مختلف الأمم، فلم يعين بها أساقفة أو رؤساء، وكان الجمهور يشتركون سويا سواء فى التنظيم أو فى تفسير التعاليم المسيحية. وعند لقاءاتهم - رجالا ونساء - كانوا يختارون عن طريق القرعة، من منهم سوف يقوم بالإشراف على بعض الطقوس الدينية، مثل التعميد والعشاء الأخير، إلا أن هؤلاء الآباء لم تكن لهم سلطة على الجماعة خلال القرن الأول للميلاد. وكان هذا هو نفس الحال فى روما منذ ظهور كنائسها، إلا أن آباء الكنيسة -وخاصة فى روما- أرادوا تحويل دورهم إلى قيادة رئاسية منذ نهاية القرن الأول. لم يتمكن الآباء من الاعتماد على تعاليم بولس لتثبيت سلطتهم، حيث إن بولس لم يعين أى رئيس فى الكنائس التى أنشأها، لهذا لجئوا إلى بطرس حيث كانت كنيسته فى أورشليم تقوم على أساس كهنوتى من سيطرة الرؤساء على الجماعة، سواء فى الأمور التنظيمية أو فى التعاليم.

مفاتيح المملكة

شهدت الأعوام الأخيرة من القرن الأول للميلاد ظهور العديد من آباء الكنيسة، الذين بدءوا فى تأسيس سلطة تمكنهم من السيطرة على المجتمعات المسيحية المتنافسة، وتنظيم عقائدها المتباينة. وكان كليمنت

أسقف روما (٩٠ ـ ٩٥) من أوائل هؤلاء الآباء. ادعى كليمنت أن قادة الكنيسة حصلوا على تفويض من الرب كى يكونوا «**حكاما على الأرض**» وأن العامة يجب أن يخضعوا لسلطة الأساقفة والقساوسة الذين ـ بحسب قوله «**خولوا سلطة الاحتفاظ بمفاتيح المملكة**». وفى رسالته الأولى التى وجهها إلى مؤمنى كورنثوس كتب كليمنت:

«تسلم الرسل الإنجيل من الرب يسوع المسيح من أجلنا... وأقاموا الثمار الأولى لكى يكونوا أساقفة وشمامسة... ويستطيع الأساقفة بدورهم تعيين خلفاءهم... وقد علم رسلنا من الرب يسوع المسيح أنه سيكون هناك نزاع على سلطة الأساقفة. ولهذا السبب فقد تلقوا معرفة كاملة سابقة وقاموا بتعيين الأساقفة. واهتموا باستمرارية ذلك، فإذا مات السابقون خلفهم آخرون فى الخدمة الكهنوتية».
(كليمنت: ١ . ٤٤)

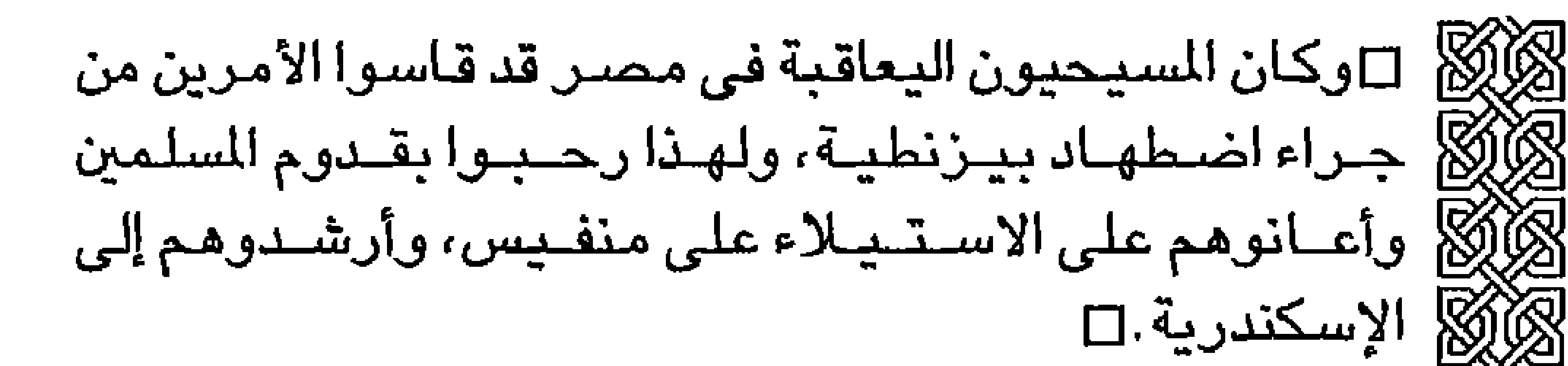
وكانت كنيسة روما هى أول كنيسة تم تنظيمها بهذه الطريقة الكهنوتية، وأصبح نظامها مثلا احتذته باقى الكنائس فى القرن التالى. وتمكن الأساقفة الرومان من تحقيق أهدافهم مع نهاية القرن الميلادى الثانى، ثم تأكدت سيطرتهم كلية على أثر استخدام الإمبراطور قسطنطين للمسيحية عام ٣٢٥، فمنذ ذلك التاريخ صارت الكنيسة قوة كاثوليكية موحدة داخل الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت الكنيسة جزءا من الدولة باستطاعتها الاعتماد على الدعم السياسى والعسكرى فى مواجهة خصومها الذين يرفضون قبول تعاليمها، وعلى رأسهم كنيسة الإسكندرية.

ورغم أن الكنائس الأممية نشأت عن طريق عمليات التبشير التى قام بها العارفون المصريون وبولس الرسول، فقد تحول أساقفة روما إلى طرس الذى نظم كنيسة أورشليم اليهودية على الأسس السلطوية التى رغبوها لأنفسهم. ولكى يقيموا فكرة الخلافة الرسولية، ابتدعوا أسطورة نجاة بطرس بمعجزة وهربه من السجن فى القدس عام ٤٤، ومجيئه إلى روما ليصبح أول أساقفتها. وعلى هذا أصبح أساقفة روما يعتبرون أنفسهم خلفاء بطرس(*)، الذى لم يقابلوه والذى لم يذهب إلى روما.

(*) اتفقت الأناجيل الأربعة على أنه عند محاكمة المسيح، أنكر بطرس معرفته به ثلاث مرات، وقد جاء فى إنجيل متى أن المسيح وبخ بطرس قائلاً «أغرب من أمامى يا شيطان! أنت عقبة أمامى، لأنك تفكر لا بأمور الله بل بأمور الناس» (١٦ : ٢٣).

الفصل الحادى عشر

اضطهاد الرومان لأقباط مصر



□وكان المسيحيون اليعاقبة فى مصر قد قاسوا الأمرين من جراء اضطهاد بيزنطية، ولهذا رحبوا بقدوم المسلمين وأعانوهم على الاستيلاء على منفيس، وأرشدوهم إلى الإسكندرية.□

«قصة الحضارة، ول ديورانت جـ ١٢ صفحة ٢٦١، ٢٦٢»

وقعت مصر تحت الحكم الرومانى بعد دمار الأسطول المصرى عند ميناء أكتيوم على الساحل الغربى لبلاد اليونان، عام ٣١ قبل الميلاد، إذ خرج القائد مارك أنتونى - أنطونيوس - والملكة كيلوپاترا على رأس الأسطول المصرى لمباغتة الأسطول الرومانى بقيادة أكتاڤيوس بالقرب من الساحل الإيطالى، بهدف إخضاع روما إلى سلطة الإسكندرية. وعندما نستعرض الآن ظروف معركة أكتيوم البحرية، نجد أن قرار خروج الأسطول المصرى إلى عرض البحار - بدلا من انتظاره بالقرب من ساحل البلاد - كان قرارا خاطئا، أدى إلى عزل القوات البحرية عن قاعدتها التى تحميها. فقد علم أكتاڤيوس بمكان الخليج الذى اختبأ فيه الأسطول المصرى عند أكتيوم، وبدلا من مفاجأة المصريين له فاجأهم هو فى مخبئهم ودمر أسطولهم. فجاءت هذه المعركة لتغير مجرى التاريخ، وتجعل الطريق مفتوحا أمام جيوش روما لتفرض سيطرتها على الإسكندرية. ودخل أكتاڤيوس أغسطس العاصمة المصرية ليجد أنتونى قد أنهى حياته منتحرا، وتبعته إلى نفس المصير كيلوپاترا آخر ملوك العائلة البطلمية.

وبموت كيلوپاترا، انتهت حقبة الحكم البطلمى التى استمرت حوالى ثلاثة قرون، بعد موت الإسكندر الأكبر قبل نهاية القرن الرابع ق.م، ويعتقد البعض خطأ أن فترة الحكم البطلمى تعتبر فترة للحكم اليونانى فى مصر، وهذا ما يتعلمه طلابنا فى مدارسهم حتى الآن. فلم يكن

البطالمة أنفسهم ـ ولا كان الإسكندر الأكبر ـ من اليونان، وإنما كانوا من المقدونيين الذين أخضعوا اليونان لحكمهم. وسئل الإسكندر وهو على فراش الموت: من يخلفك؟ فأجاب: الأقوى. وبعد موت الإسكندر ـ فى بابل عام ٣٢٣ ق. م ـ قام أربعة (الأقوى) من قادته بتقسيم الإمبراطورية التى كونها بينهم، فأصبحت مصر من نصيب بطليموس. وأقام بطليموس حكم عائلته على مصر مثلما أقام محمد على فى العصر الحديث حكم أسرته عليها، فلم يكن يحكم البلاد لصالح سلطة أجنبية. بل إن تتويج الملوك البطالمة كان يتم بالمعابد المصرية على نفس طريقة تتويج الفراعنة من قبل، وأصبح الملوك البطالمة يتزوجون أخواتهم على الطريقة المصرية. وظلت العبادة مصرية وغالبية عناصر الإدارة والحكم ـ وحتى تنظيم الجيش بعد المرحلة الأولى ـ ظلت كلها مصرية، تماما كما كانت فى الأزمنة القديمة، كل ما فى الأمر أن الكتابات ـ سواء فى ذلك المتعلقة بشئون الحكم أو المتعلقة بالمسائل الدينية أو الثقافية ـ يتم كتابتها باللغة اليونانية إلى جانب اللغة المصرية.

اعتبر أكتافيوس قيصر أن أرض مصر صارت ملكا له شخصيا وليست ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية، وتبعه فى هذا باقى الأباطرة. وعين الإمبراطور حاكما يدير أمور مصر يكون مقره بالإسكندرية، كان همه الوحيد هو جمع الضرائب التى كانت تتمثل فى كمية هائلة من الحبوب، ليتم إطعام روما وتوابعها كل عام. ووضع الرومان ثلاث حاميات من الجنود فى مصر، خفضوها إلى اثنتين بعد ذلك، تتكون كل منها من ٦ آلاف رجل. ومنذ البداية أساء

الرومان معاملة المصريين، وكان المصريون يسمون أقباطا - إيجيبتوس - فى تلك الفترة.

يرجع تاريخ الكنيسة المسيحية فى مدينة الإسكندرية إلى حوالى عام ٤٢ ميلادية، بحسب ما جاء فى أول كتاب عن تاريخ المسيحية الذى كتبه يوسيبيوس أسقف قيصرية على الساحل الفلسطينى، وكذلك روايات الأقباط المصريين أنفسهم. وتجمع هذه الروايات على أن القديس مرقص - الذى كتب أقدم أناجيل العهد الجديد - هو الذى أصبح أول أساقفة كنيسة الإسكندرية، فى وقت لم تكن فيه كنيسة روما قد أنشئت بعد. **ومنذ بداية نشأتها، تعرضت الكنيسة المصرية لموجات متتالية من اضطهاد الرومان لها، سواء عندما كانت روما لا تزال وثنية أم بعد أن تحولت إلى المسيحية.** ومن يتابع تاريخ العلاقة بين الرومان والمصريين لابد وأن يلاحظ وجود مشروع رومانى مستمر، يهدف إلى تحطيم البنية الحضارية للشعب المصرى. فلم تنس روما أن المصريين خرجوا يهددون عتباتها فى أوروبا، وهم القوة الوحيدة التى تجرأت على تحدى سلطتهم ومحاولة وقف زحفهم إلى الشرق. وبالرغم من هزيمة مصر وانتصار روما، فقد ظلت الإسكندرية هى عاصمة الثقافة والعلم والدين فى جميع أنحاء الإمبراطورية، بينما كانت روما هى العاصمة السياسية.

وتقول الروايات القبطية إن القديس مرقص كون أول مدرسة لاهوتية بالإسكندرية، ومعنى هذا أن تاريخ هذه المدرسة يرجع إلى

منتصف القرن الأول للميلاد . وهناك عدة مصادر تؤكد وجود مدرسة لاهوتية مزدهرة فى الإسكندرية منذ ١٩٠ ، أصبحت مركز الفكر المسيحى فى العالم كله ومجالا للفكر الدينى المتحرر . إذ كان الفكر المسيحى المصرى عندئذ مفتوحا على دراسة الفلسفة - وخاصة الأفلاطونية الجديدة - التى على أساسها يتم تفسير كتب العهد القديم .

وأول عملية رسمية قامت بها السلطات الرومانية لاضطهاد الأقباط المصريين ، وقعت أيام حكم الإمبراطور ديسيوس الذى حكم روما ٢٤٩ - ٢٥١ ، وفرض القسم على أقباط مصر بأنهم قاموا بتقديم القرابين للآلهة الوثنية ، حتى ينفوا عن أنفسهم تهمة اعتناق العقيدة المسيحية. **واستمرت عمليات اضطهاد الأقباط حتى بلغت أوجها فى فترة حكم الإمبراطور دقلديانوس، الذى أصبحت بداية حكمه عام ٢٨٤ بداية للتقويم القبطى، من كثرة عدد الشهداء الذين قتلوا فى أيام هذا الإمبراطور. وأصدر الأقباط فى هذه السنة تقويمهم المعروف؛ تقويم الشهداء - والذى يحتفل به حتى الآن - وهو رأس السنة القبطية.**

تحولت الدولة الرومانية إلى المسيحية عام ٣٢٥ ، عندما أصدر الإمبراطور قسطنطين إعلان ميلانو ، ينص فيه على أن المسيحية أصبحت هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية . ومنذ ذلك التاريخ ، زاد الصراع بين الرومان والمصريين ، إذ أراد أساقفة روما انتزاع قيادة العالم المسيحى من أساقفة الإسكندرية ، حتى تصبح روما هى العاصمة السياسية والدينية كذلك ، ومنح الإمبراطور سلطات

للأساقفة الرومان، فأصبح لهم الحق فى استخدام سلطة الشرطة والجيش فى فرض تعاليمهم على من يخالفهم، فى أى مكان من الإمبراطورية. وفى عام ٣٢٥، عقد الإمبراطور قسطنطين مجمع مسكونى ليوحد عقائد المسيحيين فى صيغة واحدة يفرضها على كل المسيحيين، وعدا ذلك يكون هرطته. وانتهى بهم الأمر إلى إرسال الأسقف ثيوفيلوس إلى الإسكندرية، وهو الذى قام فى عام ٣٩١ بحرق معبد السرابيوم ومكتبة الإسكندرية الشهيرة التى كانت بداخله، حتى يصبح ڤاتيكان روما هو قبلة المسيحية الوحيدة. وتبع ذلك عمليات تفتيش واسعة بجميع أنحاء الدولة المصرية، بحثا عن أية كتابات لدى الأقباط المصريين تعارض تعاليم كنيسة روما. وهذه هى الفترة التى قام فيها بعض الرهبان البخوميين بإخفاء مخطوطات نجع حمادى فى زلعة، وضعوها فى أحد الكهوف المخصصة لدفن الموتى.

وانتهى حكم روما على مصر عند موت الإمبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٩٥، أربع سنوات بعد حرق معبد السرابيوم ومكتبة الإسكندرية. وانتقلت مصر بعد ذلك إلى سلطة الدولة البيزنطية الجديدة وعاصمتها القسطنطينية حتى عام ٦٤١، عندما وصل إليها عمرو بن العاص. فمنذ أن تم بناء مدينة القسطنطينية عام ٣٣٠ لتكون عاصمة القسم الشرقى من الإمبراطورية الرومانية، انفردت العاصمة الجديدة بأخذ الضرائب المفروضة على المصريين ـ والتى جاوزت ثلاثة ملايين أردب من القمح ـ لنفسها، وحرمت روما منها.

وكانت العلاقة سيئة بين أقباط مصر وحكام بيزنطة منذ البداية، إلا أنها ازدادت سوءا بعد عقد مؤتمر نيقيا الثانى لممثلى الكنائس عام

٤٤٩ . فقد تم فى هذا المؤتمر فرض عقيدة ثنائية وجود المسيح باعتبارها العقيدة الصحيحة ، واعتبار من يخالفها من الهراطقة . ولما كانت الكنيسة القبطية المصرية لا توافق على ثنائية شخصية المسيح فقد اتهمتها روما والقسطنطينية بالهرطقة . ولهذا قرر المصريون الانسحاب كلية من مجامع الكنائس العالمية من ذلك التاريخ . وفى محاولة منهم لفرض عقيدة الرومان على المصريين ، قامت القسطنطينية بفرض سيطرتها على كنيسة القديس مرقص بالإسكندرية ، وعينت أسقفا لديها للإشراف عليها . إلا أن هذا لم يفلح ، فقد أقام الأقباط كنيستهم للقديس مرقص خارج الإسكندرية واختاروا لها أسقفا مصريا ، فأصبح هناك فرعان للكنيسة المرقصية .

وبدأت السلطات البيزنطية سلسلة من عمليات الاضطهاد ضد أقباط مصر بهدف إجبارهم على قبول العقيدة الرومانية ، استمرت حوالى قرنين من الزمان حتى مجىء عمرو بن العاص إلى مصر . وعين الإمبراطور البيزنطى رجلا واحداً هو أبوليناريوس ليكون حاكما على مصر وقائدا للجيش وأسقفا للإسكندرية ، حتى يمنحه سلطات كاملة لفرض عقيدة روما على شعب مصر . ورفض أقباط مصر الحكم العسكرى للكنيسة واختاروا أسقفا لهم من بينهم ، إلا أنه اضطر للانتقال سرا بين أديرة الصحراء حتى لا يلقى البيزنطيون القبض عليه . وزاد الحاكم الجديد فى الضرائب على المصريين الذين أساء ممثلو السلطة معاملتهم فى جميع المناسبات ما بين عامى ٤٥١ و٦٤١ .

يرجع السبب الرئيسى للمشاكل التى حلت بمصر أثناء الحكم البيزنطى، إلى محاولة القسطنطينية فرض سيطرتها على كنيسة الإسكندرية. ولما لجأت العاصمة البيزنطية إلى فرض مندوبها على كنيسة الإسكندرية، رفضت جميع الكنائس المصرية الخضوع لتعاليمه وصارت سلطته لا تتعدى حدود الجاليات اليونانية المقيمة بالإسكندرية. فبعد أن أكد المجمع الكنسى المنعقد فى مدينة خلكيدون عام ٤٥١، تفسير مؤتمر نيقيا الذى يعتبر أن السيد المسيح كانت له طبيعتان مختلفتان - إلهية وبشرية - رفض المصريون قبول هذه العقيدة، ثم قرروا الانفصال عن المجمع الكنسى العالمى لهذا السبب. وكانت الكنيسة المصرية - ولا تزال - تعتقد بوحدانية طبيعة المسيح. وأدى هذا القرار إلى انقسام العالم المسيحى آنذاك إلى معسكرين مختلفين، إذ رفضه المصريون والأثيوبيون والسوريون والأرمن.

ولم تنته مشاكل الأقباط المصريين مع الرومان والبيزنطيين إلا بوصول الجيوش العربية إلى مصر. فبعد اشتباكات متفرقة شرقى الدلتا، سار جيش المسلمين إلى عين شمس، إلا أن أهم معركة واجهها عمرو بن العاص قبل مسيرته إلى الإسكندرية، كانت هى موقعة الاستيلاء على حصن بابليون بمصر القديمة التى انتصر فيها على الحامية الرومانية فى ٦ أبريل ٦٤١، وبعد محاصرة لمدينة الإسكندرية استمرت عدة أشهر، تم الاتفاق مع السلطات البيزنطية على تسليم المدينة بدون قتال فى ٨ نوفمبر من نفس العام، ورحيل الرعايا البيزنطيين عنها. وأعلن العرب ضمانهم لحرية العقيدة لأهل الكتاب

من المسيحيين واليهود، وبعد ذهاب البيزنطيين جاءوا بالأسقف القبطى بنيامين الأول من مخبئه، وسلموا إليه كنائس الإسكندرية(*).

(*) جاء فى كتاب «تاريخ الكنيسة القبطية» من تأليف القس منسى يوحنا ـ منشورات مكتبة المحبة تحت رقم إيداع: ٣٠٣٦/ ٨٣ بدار الكتب ـ ما يلى:

«ولما رأى كيروس بطريرك الملكيين أن الاتفاق السياسى بين هرقل والمصريين يتوقف على الاتفاق الدينى، حاول أن يرغم البطريرك القبطى البابا بنيامين على توقيع المنشور رغما، فهدد حياته وحياة كثيرين من وجهاء الأقباط، حتى اضطر معظمهم أن يتركوا مدينة الإسكندرية، وهرب البابا بنيامين، ولما لم يقف له على أثر، قبض على أخيه مينا وأنزل به بلايا عظيمة، وأشعل فى جنبه المشاعل حتى خرج شحم كليتيه إلى جنبه وسال على الأرض، وقلع أسنانه باللكم لاعترافه بالأمانة الأرثوذكسية. وكان هرقل قد أوصى جنوده بأنه إذا قال أحد إن مجمع خلكيدون حق، اعفوا عنه، ومن قال إنه ضلال أطرحوه فى البحر، ففعلوا ذلك وملأوا جملة جوالق رملا وطرحوا مينا فى البحر وهم يمسكون الجوالق، وقالوا له: قل إن مجمع خلكيدون حق ونحن نرحمك، فأبى وكان هذا على ثلاث دفعات، ثم دفعوه إلى عمق المياه فراح شديد التمسك بإيمانه» صفحة ٣٠٤.

«ثم أقام هرقل أساقفة خلكيدونيين فى بلاد مصر كلها إلى انصنا، وكان يبلى الأرثوذكسيين بلايا صعبة، وما زال يطارد رعاتهم ويضطهدهم ويذل أفرادهم ويغتصب كنائسهم ويسلب منازلهم، وهم صاغرون، ويفتك بهم وهم صابرون بدون أن يتبصر فى عواقب الأمور حتى أشرفت مملكة الرومان على الهلاك، وأصبحت فى حال انحطاط زائد بسبب التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية» صفحة ٣٠٥.

«وقرب عمرو إليه كثيرين من الأقباط، واعتمد عليهم فى إصلاح شئون البلاد، ووظفهم بوظائف عالية، فكان منهم الحكام والرؤساء والكتاب وجباة الخراج، فقاموا بخدمة البلاد بأمانة حتى عم الرخاء وساد الأمن، وقسم عمرو القطر المصرى إلى كور أو أعمال، يرأس كلا منها حاكم قبطى تأتيه القضايا ينظر فيها ويصدر أحكامه. وخطب عمرو فى جيش المسلمين، وكان من خطبته قوله «حدثنى عمر أمير المؤمنين (رضى الله عنه) أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لكم فيها صهرا وذمة، فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم» اهـ، ثم بنى عمرو جامعه المعروف بهمة مهندس قبطى يدعى بقطر» صفحة ٣٠٨.

الخلاصة

كما رأينا، فإن فى روايات الكتاب المقدس - سواء تلك المتعلقة بالعهد القديم أو بالعهد الجديد - جذور مصرية الأصل. سواء كان الكلام عن أشخاص (زوجة يوسف المصرية وابنته الملكة - موسى والحكمة التى استقاها من مصر سواء كان إخناتون/ أو ملكًا/ أو حتى أميرًا - زوجة موسى المدينية، وفتاه وخليفته يشوع بن نون)، أو معارك وانتصارات (داود وتحتمس)، أو أفكار ومعتقدات (البعث بعد الموت والحساب، مفتاح الحياة والصليب، إيزيس وأوزوريس وحورس والأب والأبن والروح القدس)، مكوث المسيح فى مصر، سواء خرج منها وليداً صغيراً/ أو فتى/ أو شاباً، حضور بولس الرسول للعربية فى سيناء.

وبينما ترجع فكرة انقسام الوجود البشرى إلى بعد روحى وكيان جسدى إلى بداية التاريخ المصرى، فإن فكرة البعث وقيامة الموتى والحساب فى العالم الآخر كانت كذلك فكرة مصرية منذ البداية. وكان لملوك العمارنة - إخناتون وتوت عنخ آمون - الفضل فى إدراك وحدانية الوجود الإلهى، لأول مرة فى التاريخ الإنسانى المعروف.

إلا أن العالم لم يكن مستعدا خلال القرن الربع عشر قبل الميلاد لإدراك هذه الفكرة، وبسقوط حكم ملوك العمارنة، مُحيت ذكرى

الملكين العظيمين من قائمة الملوك فى مصر، ثم نسبت بعد ذلك إلى بنى إسرائيل عندما رواها كتبة التوراة. وبينما عاد المصريون بعد ثورة العمارنة إلى ديانتهم القديمة، اختار بنو إسرائيل آلهة كنعانية أخرى كعشتاروت وبعل، بعد أن ارتدوا عن ديانة موسى التوحيدية. ولم تستعد القبائل اليهودية ذكرى وتعاليم موسى - بشكل أو بآخر - سوى بعد الغزو البابلى لفلسطين فى القرن السادس قبل الميلاد، بعد بضعة قرون على وفاته.

ومع هذا، فإن الجماهير الشعبية - سواء فى مصر أو بين أتباع أنبياء بنى إسرائيل من أمثال أشعيا - حفظوا ذكرى موسى ويشوع، وبدأت سلسلة طويلة من التفكير والتأمل، فى معنى ومغزى التعاليم التى تركاها.

وعند بداية التاريخ الميلادى كانت هناك طائفتان متشابهتان، ولكنهما منفصلتان هما العيسويون (اليهود المسيحيون) فى اليهودية وأورشليم، والعارفون (المسيحيون الأمميون) فى مصر وعاصمتها الإسكندرية. وبينما كان القديس بطرس ينتمى إلى مجتمع أورشليم، فإن بولس الرسول أخذ تعاليمه من مصر.

كانت كنيسة أورشليم لا تقبل سوى اليهود المختتنين فى صفوفها، لذا لم يكن غريبا ألا يتعدى أتباعها فى القرن الأول الميلادى أربعة آلاف شخص. واختفت تلك الكنيسة من الوجود على أيدى الرومان بعد تدميرهم لأورشليم عام ٧٠ ميلادية. ولهذا فإن الكنيسة المصرية الأممية هى التى قامت بنشر العقيدة الجديدة فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية،

وهى التى نتج عنها الكيان المسيحى الموجود الآن فى العالم(*). ولكن النجاح الكبير للحركة الدينية المصرية الجيدة، أصبح يشكل تهديدا لسلطة روما السياسية. فرغم أن روما صارت هى العاصمة السياسية للإمبراطورية منذ هزيمة أنتونى وكيلوپاترا، إلا أن الأسكندرية ظلت هى العاصمة الثقافية والروحية للإمبراطورية. لهذا لجأ أساقفة روما إلى تدمير معبد السرابيم بالإسكندرية وحرق المخطوطات التى فى داخله، ثم محاولة إضفاء الشرعية على سلطتهم البابوية عن طريق الادعاء بأن القديس بطرس جلب إليهم تفويضًا من المسيح بعد قيامته. وكما أنه من المؤكد أن بطرس مات فى فلسطين ولم يذهب إلى روما، فنحن نعلم كذلك أن المصريين هم الذين أوصلوا العقيدة المسيحية إلى روما نفسها، وأن القديس مرقس كان أول بابا للكنيسة فى أى مكان فى العالم. وكان السبب الرئيسى لاختيار الرومان فلسطين - بدلا من مصر - لتكون مركزا للكنيسة الأولى، أن هذه البلاد صارت حطاما وليس بها من ينازع الآباء الرومان فى سلطتهم.

(*) وصل مبشرون مصريون إلى أيرلندا، أقصى غرب أوروپا، ولذلك تجد الاسم المصرى «رمزى» مستخدمًا حتى اليوم كاسم عائلة فى بريطانيا وأيرلندا.

كتب للمؤلف

١ ـ تاريخ اليهود (١ ـ ٣) . مكتبة الشروق

٢ ـ مخطوطات البحر الميت . " "

٣ ـ في الشعر الجاهلي . " "

وصدر له باللغة الإنجليزية من دور نشر بريطانية :

1 - Strangers in the Valley of the kings - Sovenir Press.

2 - Moses: Pharoh of Egypt - Harper Collins.

3 - The House of the Messiah - Harper Collins.

4 - Out of Egypt - Random House.

الفهرس

الجزء الأول

الجـزء الثـانى

رقم الإيداع ١٣٥٣٧ / ٩٩
الترقيم الدولى 8 - 0565 - 09 - 977